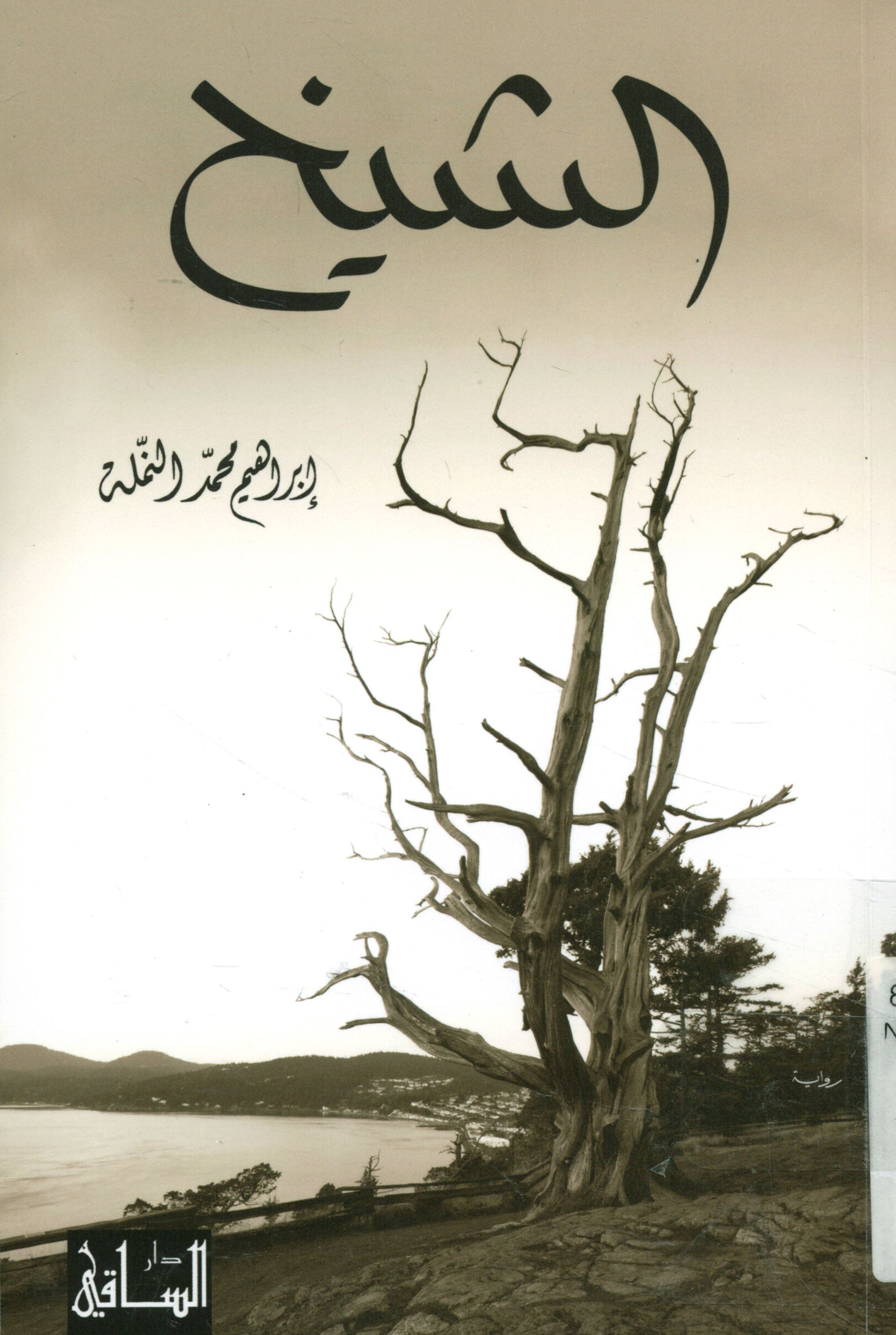

الشيخ
إبراهيم محمد النملة
رواية
دار الساقي

الشيخ

صدر للمؤلف

تفاصيل، قصص قصيرة، المؤسّسة العربية للدراسات والنشر 2000.
سيرة عمر أجهضه الصمت، قصص قصيرة، دار الساقي 2002.
عائلة تحمل اسمي، قصص قصيرة، دار الساقي 2003.
بكاء عمي، قصص قصيرة، المؤسّسة العربية للدراسات والنشر 2005.
عبث، رواية، دار الساقي 2006.
شكوت نفسي، شعر، دار الساقي 2008.
رغبات المطر، قصص قصيرة، المؤسّسة العربية للدراسات والنشر 2010.
إليكم جميعاً، رسائل، المؤسّسة العربية للدراسات والنشر 2012.
أحبتني لأجل غيري، شعر، المؤسّسة العربية للدراسات والنشر 2012.

تصميم الغلاف: سحر مغنية
خطوط العناوين: حمدي طبّارة

إبراهيم محمّد النحّلة

الشيخ

إذا خفتَ فلا تَقُلْ... وإذا قلتَ فلا تخَفْ



دار الساقي

ISBN 978- 1- 85516- 979- 1

© دار الساقي، 2013
جميع الحقوق محفوظة

دار الساقي
بناية النور، شارع العويني، فردان، بيروت.
ص.ب.: 113/5342. الرمز البريدي: 2033 - 6114
961- 1- 866442+، فاكس: 866443 -1 -961+
e- mail: info@daralsaqi.com

يمكنكم شراء كتبنا عبر موقعنا الإلكتروني
www.daralsaqi.com
تابعونا على
@DarAlSaqi
دار الساقي
Dar Al Saqi

إلى الشاعر الأديب

سعد الحميدين

لم أخلق من خيالي أرض هذه القرية ولا ناسها
وإنما أتوا إليّ وقالوا اكتب عن حكايتنا
فلم أرفض لهم طلباً
وحين انتهيت من الكتابة
أردت أن يروا أنفسهم في كلماتي
فلم أجد منهم أحداً
وكأنهم خُلقوا من خيالي!!!...

ملاحظة مهمة

هذه القرية
لُعنت من ناسها الذين تركوها
وسكنوا المدينة

[حينما أردت أن أكتب الحقيقة، أدموا أصابعي، عندئذ حويت اختلافهم بنظرة وتهجّيت شجاعتهم المزعومة وقرأت خوفهم المشتعل بداخلهم دون دخان، لم أعِرْهم انتباهاً، فردْتُ ورقة بيضاء وكتبت الحقيقة بدماء أصابعي،...].

(الشيخ مرزوق)

[... الورقة الأخيرة للشيخ مرزوق...]

[... تلك هي الورقة الأخيرة التي كتبها الشيخ مرزوق بعد آخر صلاة عشاء صلاَّها...]

[... أهل القرية أناس بسطاء، لا يعرفون من الحياة سوى ما تحفظه عقولهم من آيات القرآن الكريم، يتفقون دائماً على أمور معينة، ويتلاشى اتفاقهم ذلك بعد فترة من الزمن... ينسونه أو يتناسونه!!!...

انفعاليون، يخافون من الموت والجوع كثيراً!!!...].

في هذه القرية سيكتب الزمن أسطورته ومن ثم يرحل...!!!

وسيطمس الزمن الذي يليه عمق هذه الأسطورة لتظل جوانبها عارية التفاصيل تفضح ما خبَّأته الأيام عن الأنظار...

وتبقى القرية رمزاً لوجوه لم تطأ أقدامُها ترابَ القرية...

أسماءٌ كثيرة سُرقت أفعالُها بعدما مات أصحابها...

وأفعال كثيرة سُحبت من الألسن بعدما كانت مصدراً للتفاخر...

تغيرت كثيراً كلمات تلك الأسطورة حتى أصبحت لا تشبه واقعها الحقيقي...

وعلى رغم كل هذا...فاسم القرية ظلّ يصارع ضجيج أسماء المدن الكبيرة التي لا تبعد عنها كثيراً وقد غُلفت بزخارف الحضارة...

تتابع السنين بثباتٍ ذاكرةُ عقول مسنّي القرية التي لم تلوثها المادة ولم يدنّسها الخوف...

أهل القرية لم يكونوا سوى أدوات فقط...

يبحثون عن لقمتهم منذ بداية الخيوط الأولى للفجر، ليعودوا إلى دُورهم محمّلين بالتعب، وبجهد كبير انحسر في أيديهم مالاً قليلاً...

إنَّ من يعطونهم المال ويبسطون أيديهم في الهواء متفاخرين باخضرار الأرض؛ هم من عرَّى القرية من كل شيء، حتى من لباسها...

غسلوا جسدها بقسوة حاضرهم الذي يقطن في قصورهم البعيدة...

كلُّ شيء في هذه القرية قد لوَّثوه بأيديهم عدا اسمها الذي رسخ في تاريخ الذاكرة للأبد...

ألبسوها ثوباً جديداً لا يناسب تفاصيل الماضي الباقية في الأذهان...

وبقي الأمل في ذاكرة الأحفاد التي غُذّيت بحديث مساءات الظلام عن هذه القرية لتنتزع ذلك الثوب وترميَه في وجوههم ويظل اسم القرية القديم على ألسنتهم التي لم تصلها أياديهم الملوّثة...

هنا وهنا فقط سينضح سائل بارد من تحت تراب قبور الأجداد!!!...

وبكل هذا...

وأمام الرب العلي القدير الذي لا تخفى عليه خافية ستبقى ذاكرتي تحمل كل سمات الماضي التي حكت عنها الأسطورة والتي لم تحك عنها، تلك الذاكرة المتخمة والتي لم تطمسها يد، سأحملها في صدري وأضع يدي عليها حتى لا تسقط وأسير بها في كل متعرجات الطرق وأجتاز بقوة الله كل العوائق حتى أصل... حينئذٍ سألقي لمن أرجو له أن يعيش من بعدي، وأحل يدي وأفتح أزرار صدري لينهل الأسطورة كما هي في عقله...

ولن ألتفت خلفي...

سأخطو خطوتي بكل هدوء واتزان، وسأجعل من كل خطوة صرخة من تراب في وجه الزمان...

لن أترك صرختي المدثرة برائحة الأجداد معلقة على أشجار النخيل وملتصقة على الجدران الطينية؛ بل سأجعلها ترتكز ثباتاً في عيون الأجيال القادمة ومسامعها لزمن آتٍ، وأغادر القرية بخطواتي أو على خشبة مستطيلة!!!...

1

حين سأل صادق عن الشيخ مرزوق أجابوه:

– لقد مات، مات قبل أن يمحو نور الفجر بقايا الظلام من الأفق البعيد، في تلك الليلة التي لم تشهد نظراتُه صباحها، قال كلاماً كثيراً وبعدها صمت!!!

قالوا... لقد قال:

– إن الحياة لا تعرف سوى وجوه الأغنياء، أما من فتنوا باستقبال طلائع النهار عند بوابات الليالي الرطبة، فإن الحياة تحتفي بهم، لتدلَي على وجوههم كل الصور، التي لم ترها أعين الأغنياء، تلك الصور المتكررة والمملة، والتي تحكي، وتعبر عن فرق الليل عن النهار!!!

كل من كان يسمعه قبض عليه الصمت، ضمّ دمعة ألم في عينه وصمت، لم ينظر الشيخ مرزوق إلى مَن كان يستمع إليه، خوفَ أن تسحب دمعتُهم دمعته، ويصمت عن الحديث. الكل وضع رأسه بين ركبتَيْه، وبكى بنشيج داخلي.

كانت حروفه تمر فوق رؤوسهم، تجرح أسماعهم بحقيقة كانوا يظنون أنهم يعرفونها، وحينما قالها تعرّوا من كل شيء، وأصبحت

حياتهم عارية، لا تجد من يكسوها، لم يتعبه الحديث، ولكنه فضَل الصمت، أدرك أنه قال شيئاً من أشياء كثيرة، ستفتح أمام تبصّرهم، وهمَ الشيء المعيش، وفهم الأشياء التي يخفونها تحت مسمّى القدر!!!

صمت فجأة، وكأنه أرجى أن تقول دموعهم عن ذكرياتها أمام هذا الواقع، الذي شعروا به وأدركوه بينهم، لم يتواصل حديثه لمسامعهم، شعروا بصمته ومن ثم رفعوا رؤوسهم نحوه و لم يجدوه، سكتوا جميعهم أمام هذا المنظر وتكلّمت عيونهم!!!

قالوا:

— لقد كنا نتوقع أن يموت، وهو مُدلٍ رأسه على صدره، ولكنه مات بعدما رفع رأسه وقال كل ما يريد، ودلّى رؤوسنا على صدرونا!!!

لقد مات قبل ثلاثة أشهر، مات على سجية الحياة نفسها التي فرضتها عليه، لم يعاند الحياة و لم يكابر، ولكنه أسقط ورقة التوت عن جسدها، ومات!!!

2

هو صادق عبد المنعم، أتى من غربة دراسته، تُوفِّيَ والداه وهما في طريقهما للقرية بعد أن أدّيا فريضة الحج بمرض الكوليرا. كان حينذاك طفلاً رضيعاً، وتبنته جارتهم العقيم "سميحة" التي لم يرَ لها أولاداً ولا زوجاً، فكان ابنها، لم يكن يناديها سوى "أمّاه"، وكانت تخاف عليه كثيراً، وهو لا يعرف في الوجود سوى هذه الأم.

كانت طفولته مشاغبات بعد عودته من المدرسة مع ياسمينة ابنة الشيخ مرزوق؛ وفاضل ابن الشيخ عبد الله، رحمه الله. كان يجد متعة في اللعب معهما. وحين لا تخرج ياسمينة من دارها، كان يعود إلى داره، ولا يهتم بمطالبة فاضل له أن يلعب معه. وحين كبرا، فُرِّق بينهما، فأصبحت ياسمينة هي حلمه الوحيد. وذات يوم قبل سفره لإكمال دراسته في المدينة، ذهب إلى الشيخ مرزوق في داره، كان يبجّل الشيخ مرزوق كثيراً، ويستمع إلى نصائحه وتوجيهاته، كان يرقب ياسمينة خفيةً.

لم يكن صادق تربية أمه سميحة، بقدر ما كان تربية الشيخ مرزوق، الذي لم يكن يفارقه أبداً، وحين يجلس معه في بعض

الأمسيات، ويتقرّب منه كثيراً، ويطربه حديث الشيخ مرزوق خاصة إذا كانت ياسمينة هي موضوع الحديث، كان يلقي اهتماماً كبيراً لأحاديثه عنها، يتلذذ بكلماته التي كانت تقرّبها منه؛ حتى يكاد أن يشعر بلفحات أنفاسها الحارة، وكان حلمه أن ينهي دراسته، ويطلب الزواج بها.

كان مقرباً كثيراً من الشيخ مرزوق، وكان يرى فيه الشيخ مرزوق زوج ابنته،على رغم أنه لم يصرّح بذلك، ولكن هكذا كان. شعر صادق بمضامين كلماته، يدرك هذا جيداً، فحين يأتي فاضل إليهما، كان الشيخ مرزوق يغير محور الحديث من ياسمينة إلى شيء آخر.

في ذلك المساء حلم بها:

كان عائداً من سفره وقابل صديقه فاضلاً وسأله عنها، قال:

إنها هناك، لا تزال تجمع النجوم بعيدة عن أرض الواقع، تمارس يومها كما يمارسه الآخرون، ولكن بعقلية أخرى لا يفهمها الآخرون...

كان يسمع كلماته؛ وعقله يبحر في بحور الماضي الذي شعر به الآن، تمتدّ أمواجه لتصفع ذاكرته، يقبض بيده على نجم هارب ويخبئه في صدرها، حتى امتلأ بالنجوم وعندما ودّع صديقه فاضل متجهاً إلى داره، سقطت كل النجوم عدا نجمين التصقا في صدرها...

كان يراها بعقله تضع يدها من فوق قماش فستانها على تلكما النجمين، وتعطر وجهها بابتسامة حلم وتهمس في أذنه...

"هذا النجم لك، وهذا لمن سيحمل اسم أبيك!!!

كانا بالفعل يتقاسمان كل شيء...

لم يعد يرى طريق داره، كان هناك خلف أحلام الصبا، يمسح بيده

على شاربه الذي أتى به من مدينة الغربة وهمست نفسه:

– لقد قتلونا، قتلونا حينما قالوا لها إنكِ كبرتِ، وأنا الذي أكبر منها بعامين، نظروا إليّ النظرة نفسها التي نظروا بها إلى جسدها وقالوا لي، مازلت صغيراً!!!

ليتني لم أجمع النجوم في صدرها، وليت النجوم حين سقطت، سقطت جميعاً!!!

دخل داره وأغلق الباب على نفسه وحلمه...

لم يكن يختلف مع الشيخ مرزوق، وحين عاد إلى القرية في الإجازة، علم بموته، فبكى جفاف عيون أهل القرية، لقد مات قبل ثلاثة أشهر، وكانت تلك الأشهر كفيلة بهذا الجفاف، حقاً إنه كان يتمنى أن يراه بعد سفره الطويل.

3

كان يرقبها حين يزور والدها في بعض الأمسيات... تقرّب منها كثيراً حين فتح الشيخ مرزوق في بعض محاور أحاديثه حديثاً عنها...
كان يلقي اهتماماً كبيراً لأحاديثه عنها، ويتلذذ بكلماته التي كانت تقربها إلى قلبه لتبلغ منه الشغاف.

كانت ياسمينة تصغره بثلاثة أعوام، ولدت ذات فجر بارد في قرية بعيدة، قريبة من منطقة الشام.

الشيخ مرزوق استقبل وودّع في الوقت نفسه، استقبل ابنته ياسمينة، وودع زوجته أثناء ولادة ياسمينة، وأصبح الشيخ مرزوق في حيرة من أمره، فتكفّل جاره، حين رآه مهموماً، أن يستضيفها خلال فترة ذهاب الشيخ مرزوق للعمل، فيجلسها عند زوجه وأطفاله، وحين عودته من العمل كان يمر بها الشيخ مرزوق ويأخذها، وفي أغلب الأحيان يجدها قد سبقته إلى الدار قبل وصوله، ثمَّن الشيخ مرزوق لهذا الجار الكريم موقفه.

كانت ياسمينة ذات العشرين عاماً مَطْمَعاً لكل شباب القرية، وكان صادق يتقرّب إليها من خلال زياراته الكثيرة وعشرته المتينة

مع أبيها، بعدما أبصر الحياة و لم يجد في فمه كلمة (أمي أو أبي)، كان يتمناها زوجاً له. ويذكر قبل سفره للدراسة حين زار أباها في داره، أنها كانت تنظر إليه من فتحة الباب الخشبي.

لمحتها عيناه بخفية، وعاشها حلماً، كان يعتقد أن شعورها كشعوره، وأنها تحمل في قلبها مثل حلمه، حتى أن الشيخ مرزوق كان يرسل له سلامها بطريقة غير مباشرة حين كان في غربته، كانت تصل رسائل الشيخ إلى مدينة غربته تحمل أشياء كثيرة عنها وتقرّبها إليه.

4

في نفس صادق زخم من الكلمات لم يقلها لأحد، جمعها من ليالي غربته المظلمة حتى يرميها على مسمع الشيخ مرزوق، والآن مات، مات، دون أن يسمع حصاد الليالي الماضية، ولا يعتقد أن هناك من سيسمعها بعد موته!

عاد إلى داره، ذلك البيت الشعبي القديم، الذي كان يضمه مع أمه، أغلق الباب خلفه، ورمى بجسده على فراشه المحاذي تماماً للشرفة الخشبية التي أشرعها بحثاً عن نسمة هواء، صورة الشيخ مرزوق، تطارده في كل مكان، وتنبت في ذاكرته كل الأماكن التي هجرتها، قام من فراشه متكاسلاً، نظر من الشرفة، التي تطل من زاوية تحمل مداراً آخر من الحياة، دكاكين هنا وهناك، وصخب الأقدام التي تمسح السوق الشعبي ذهاباً وإياباً، لا أحد هنا يفكر بالشيخ مرزوق، لقد مات، والموت يعلّم الأحياء النسيان. ولم يكن هناك من يعلم أنه هنا، أنه عاد إلى هذه القرية ليقول له كل شيء حتى لا ينسى كيف ينطق!!!

هواء المساء يتشعّب داخله، يمسح دموعه التي يشعر بها، من ضيق يكاد أن يكتم أنفاسه.

قبل أن يسافر، قال للشيخ مرزوق، أعطني صورة لك تكون لي حديثاً، حينما يصمتني الغرباء. رفع الشيخ مرزوق يده وربّت على كتفه وقال بابتسامة صغيرة:

– ستجد هناك بشراً، ملامح وجوههم، ستنسيك ملامح وجوهنا، وقد تنسيك الطريق الذي أتيت منه...

لا يعلم لماذا احتضنه بقوة وتملّكه فيه الصمت، وسافر، و لم تحتضن يده أو حقيبته صورة الشيخ!!!

5

لم تعد ملامح وجوه أهل القرية كما كانت سابقاً، حيث تمكن في ملامحها الحزن، ووصل إلى حد البكاء..

و لم يلكِ أحد منهم؛ فنساء القرية يشرحن حين يجتمعن كل ضحى كيف كان نومهن وهنّ يواسين بكاء رجالهن إذا سكن الليل، وأغلق كل جار باب داره واحتجب عن جواره.

وذات سنة أصاب القرية قحط وجوع، فانقطاع المطر، وتيبُّس الأرض، وموت المواشي، كاد أن يصيب أهل القرية بالجنون، فبعضهم ترك كل شيء خلفه، واتجه صوب المدينة، وبعضهم خافوا إن هم خرجوا من القرية أن يموتوا، فمكثوا فيها، صابرين ومحتسبين لله، يخرجون كل صباح، ويجلسون في الطرقات، يسمعون حديث بعضهم لبعض، والحسرة تبدو في أعينهم، حتى جاء إلى القرية رجل في الخمسين من العمر، يرفل بملابس الثراء... في البدء لم يعرفه أحد، وحين مرّ بهم، بدأ ينادي كل شخص باسمه، أو بكنيته؛ يا ابن فلان، ولكن لا أحد يرد عليه! وحين رأى في نظراتهم الحيرة، وقف شامخاً، وقال لهم بافتخار "أنا الشيخ سعيد ولد الشيخ عبد المنعم النخال".

لم يصدقوا أعينهم، تقافزوا إليه، ضمّوه إلى صدورهم، لكنه كان يدفعهم عنه اشمئزازاً وقال مخاطباً إياهم:

– سمعت ما حلّ بكم، شملهم جميعاً بنظرة لم يرفّ بها طرفه، ثم أكمل؛ سأنقذكم مما أنتم فيه.

سنتناول الغداء اليوم جميعنا في باحة المسجد...

فرح أهالي القرية بما قال. أما هو فقد تولى عنهم وتركهم، وهو لا يعلم لماذا فرحوا، هل فرحوا بعودته، أم فرحوا بوليمة الغداء!

وبعد أن تحرك بضع خطوات، شاهد أهلُ القرية صالح الوفاق، إمام القرية، يقترب من الشيخ سعيد، ويحتضنه، ثم يأخذ بيده ليتجها معاً نحو بيت الإمام صالح.

6

كان الشيخ مرزوق، يدرك أن هناك شيئاً ما، يُحاك ضد القرية، لم يشعر بارتياح لوجود ابن النخال وحديثه. وقبل أن يذهب أهالي القرية إلى الوليمة، حذّرهم الشيخ مرزوق؛ قائلاً لهم:

– جميعنا سنلبي الدعوة، ولكن حذار من مكر ابن النخال، فأنا أعرفه جيداً، لن تنتهي وليمته على خير، لا تضحُّوا بأرضكم وبهائمكم وأنفسكم بسهولة، ولا تسرعوا بالجواب حين يكون السؤال، ولكن تريثوا قليلاً، قبل أن تجيبوا عن أي شيء.

اختلطت نظرات الخوف مع نظرات الفرح في عيون أهالي القرية. هناك من أدرك حجم قول ابن النخال، وهناك من تمتم ببعض الكلمات، وغادر تجمُّعهم، وفي ملامحه عدم الرضا.

قال البدوي صمعان للشيخ مرزوق، بعدما غادره الكل:

– ابن النخال، قابلته كثيراً في قرى عديدة قريبة وبعيدة، وكنت كلما قابلته؛ ولى وجهه عنّي، وما أظنه يفعل ذلك، إلا خوفاً مني. وفي سفري الأخير، كان صالح الوفاق إمام القرية ضيفاً عنده، وكانا يتحدثان بانفعال، وحين اقتربت منهما سكتا، إنهما يا شيخ مرزوق،

يدبّران شيئاً ما ضد هذه القرية وأهلها.

لم يكن حديث البدوي صمعان للشيخ مرزوق، سوى تأكيد لما كان يشعر به، نحو ابن النخال، استغفر الله كثيراً، ثم قال للبدوي صمعان:

– هذا ما أخاف على أهالي قريتنا منه.

7

قبل بضع سنين كان صادق والشيخ مرزوق، يشربان الشاي أمام متجر الشيخ ثابت، الذي دخل متجره بعدما أعدّ لهما الشاي، وانشغل عنهما بصناعة الخوص.

بين الشيخ مرزوق وصادق ثلاثون عاماً، لم يتحدّث الشيخ مرزوق ذلك المساء، فقد كان ينظر إلى أناس السوق الشعبي وكأنه لا ينظر إلى شيء. تركه صادق كما هو... أفكار كثيرة تموج بعقل صادق، وأدها حين وجد نظرات الشيخ مرزوق ترحل بعيداً عن مكانهما؛ فجأة علا صوت بكاء من الزاوية اليمنى للسوق، لفت انتباه صادق وأثارت نظرات التعجب لديه. تجمهر وفود من البشر حول مصدر الصراخ، وقبل أن يشدّ صادق ظهره استعداداً للقيام؛ وضع الشيخ مرزوق كفه على ركبته، مشيراً إليه بالجلوس، انصاع لأمره وعينه ترقب مكان تجمهر البشر، كان الشيخ مرزوق ينظر إلى المكان نفسه، الذي ينظر إليه صادق، تنهّد تنهيدة طويلة، وقال:

– أعرفه، أعرفه جيداً، لقد كان فقيراً مدقعاً... ولكنه اغتنى بالنصب والاحتيال بعد أن أكل من مال وَرَثة كان يعمل عند أبيهم...

ترك القرية ورحل إلى قرى بعيدة مارس فيها ظلمه ونصبه ونثر عليها كل أكاذيبه، ثم عاد إلى القرية يلبس ثوب سيّده الميت، هنا فرض نفسه بقسوة وجبروت، لا أحد في القرية يحبه، ولكنهم يخافون ظلمه وبطشه، ولم يستطع أحد من أهل القرية أن يبيع تمرة واحدة سوى له، وتحكم هو بالأسعار، وها هو ذا الآن يضرب صبيَّه، يوجعه الوجع نفسه، الذي كان يشعر به حين كان فقيراً.

ولأول مرة منذ بدء حديثه يلتفت إلى صادق، يشير بسبابته التي كانت أقرب إلى صدره من صدر صادق وقال بحسرة:

– الحذر، الحذر، يا بني من الفقير إذا اغتنى!!!

والحذر... كل الحذر من سعيد النخال!...

8

بعد صلاة ظهر يوم الأحد، وهو اليوم الذي عاد فيه الشيخ سعيد للقرية، وجمع أهلها على وليمة كبيرة في باحة المسجد، امتلأت الباحة بالوجوه السمراء التي أتت من كل أنحاء القرية ومن بعض القرى المجاورة التي لم يكن حظها أقل سوءاً من حظ هذه القرية،اجتمعوا حول المسجد جميعهم عدا الشيخ مرزوق وصادق وفاضل، وكان صالح الوفاق إمام القرية يأمر أهالي القرية بالجلوس هنا أو هناك، وكانت النساء من ضمن الحاضرين، كان لهن مجلس خلف المسجد، لم يكن هذا اليوم، سوى يوم مميّز للقرية، فرائحة اللحوم المطبوخة تنتشر في كل الأجواء وجذبت حتى الحيوانات لها، فتولى الصبية طرد الكلاب، وتولى أهل القرية المساعدة في الطبخ، ولأول مرة يمتلئ المسجد لصلاة الظهر، حتى أن البعض صلى في مكانه فوق البسط المفروشة في باحة المسجد، وبعد الصلاة، وقف الإمام صالح وخاطب الجمع قائلاً:

— أيها المدعوُّون، الذين استجابوا لدعوة الشيخ سعيد الكريم، ستنالون الخير في قدومه، وستسعدون بقربه، لقد أتى إليكم هذا الشيخ الوفي للقرية، جاء إليكم يحمل البشرى لكم، كان

قد خرج من القرية فقيراً، وكوَّن نفسه بنفسه بشرف، وتعب وجهد، ولم ينسَ أهله ليعود لهم بالخير، تعلم كيف يجلب الخير لكم، وأول خيرات عودته هذه الوليمة الكبيرة، خمسة عشر رأساً من الغنم تُهدر دماؤها، لتكون لكم غداء، ولن تشعروا بالجوع بعد الآن، فإن أردتم السعادة فاتبعوه، ولن تندموا أبداً...

بدأ أهالي القرية، يتململون من كلامه الكثير، فرائحة الطبخ تكاد أن تدفعهم إلى الأكل من الطعام الذي ما زال في القدور يُطهى. أما الشيخ سعيد ذو الكرش الكبير، فقال لهم: – كلوا واشربوا، وانعموا بالخير القادم...

وبدأت القدور تنفض عن نفسها لفح النار بعدما سُحبت من فوق الجمر والحطب، وأُفرغ محتواها في صحون كبيرة، وكان الشيخ سعيد يشرف على غرف القدور؛ فيأمر بزيادة الأرز هنا، ويوصي بزيادة اللحم هناك، وهو يقول: ليأكل الجائع ويشبع، فالجائعون هم أهلي!...

قُدّمت الصحون على الأرض، وكلما اقترب صحن من أهالي القرية، هبُّوا للمساعدة في إنزاله، وحين يلامس الأرض كانوا هم يلامسونها متحلقين حوله، ولا يقومون من بعدها، فقد توافرت أيديهم على الطعام، فلا تسمع بعد البسملة حسّاً...

حتى في أيام رخاء القرية، لم يشبعوا مثلما شبعوا الآن، امتلأت البطون، وامتدت الأرجل، وتسرب النعاس إلى الجفون، فاسترخت الأبدان، ولكنهم لم يطاوعوها، وقاوموا فتورها، فالحياة في القرية، علمتهم أن يستفيدوا من كل فرصة تأتي، فامتدت الأيدي مرة أخرى

إلى الصحون العريضة، ليلتهموا ما بقي من الأرز، وينهسوا بعض العظام لتعرى من أثر اللحم، وقد دسّوا بعضها الآخر في أكياس من قماش، كانوا قد جلبوها معهم، ليجعلوا من مخزونها زاداً لهم في الأيام المقبلة، وقبل أن يحمل الكل أكياسهم ويغادروا مكان الوليمة، سمعوا صراخ صالح الوفاق إمام القرية مرة أخرى يقول لهم:

– لنهتف جميعاً للشيخ الفاضل سعيد، فهو بعد الله صاحب الفضل، وهذه الوليمة هي الأولى، وليست الأخيرة، ستشبعون كلكم، وستجدون قلب الشيخ سعيد مفتوحاً لكم، فمن لديه مشكلة أو حاجة، فليتقدم للشيخ سعيد، وهو كفيل بحل مشاكلكم، لا ترددوا، فهو الذي جاء إلى هذه القرية لأجلكم، ادعوا له في السر والعلانية...

وبدأ يدعو للشيخ سعيد، ويردد الكل بعده "آمين".

وحين سكت عن الكلام، راح الشيخ سعيد يسلّم على الجميع، وابتسامته تملأ وجهه...

تفرقوا، وراح كل منهم يبحث عن فراشه، ليستمتع بقيلولة هانئة، وهم يحلمون بوليمة أخرى.

9

قال الشيخ مرزوق حين خرج من داره بصحبة صادق وفاضل وشاهدوا أهل القرية وهم ينفضّون بعد الوليمة:

– مساكين أهل القرية، لا يعلمون أن هذه الوليمة هي الوليمة الوحيدة لهم، وهي الطُعم لأن تصبح حالهم أسوأ مما هي عليه الآن.

أجابه صادق:

– ماذا تتوقع أن يحدث بعد هذه الوليمة...

نظر إليه الشيخ مرزوق وقال وهو يبتسم:

– كما انساقت الأغنام لذبحها لتكون وليمة لأهل القرية، سيُساقون هم ليكونوا وليمة للشيخ سعيد...

– وهل ستتركهم يُساقون هكذا؟!

– ضميري وحبي لهذه القرية يمنعاني من أن أبقى صامتاً، سأجتمع معهم في وقت قريب...

قاطعه فاضل:

– ولماذا لا تجتمع معهم اليوم، لماذا ننتظر، أخاف أن ينساقوا قبل أن تجتمع بهم...

– يا بني... إذا امتلأت البطون بعد الخواء، تسكت الألسنة، وتغمض العيون.

قال صادق:

– سأسافر عن قريب، لأكمل تعليمي يا شيخ مرزوق، وأخاف أن أعود للقرية، فلا أجد القرية!...

ردّ عليه فاضل:

– لا تخَف يا صادق، فالشيخ مرزوق وأنا سنكون هنا، ولن نترك القرية تضيع...

– هذا ما يصبّرني ويهدئ من روعي، بارك الله فيكما...

لم يكن الشيخ مرزوق ليسمع حديثهم، فقد كان غارقاً في التفكير، وفجأة قال لهما مقاطعاً حديثهما:

– مَن يسرقِ الفقراء لا يجنِيَ سوى اللّعنة...

10

في مساء يوم الوليمة، اجتمع الشيخ سعيد مع صالح الوفاق إمام القرية مساءً، في دار الإمام صالح، وقال:

– كل الأمور تسير حسب ما اتفقنا، وغداً سنبدأ العمل...

– ولكنّ أهاليَ القرية عنيدون، لا يأتون لما نرغب بسهولة...

– لا عليك، فالمال يغيّر لون بؤبؤ العين...

وقال ضاحكاً: حتى "ابن الخفية" سنستغلّه بسهولة.

ضحك بصوت عالٍ صالح الوفاق إمام القرية، وفجأة تغيّرتْ ملامحه، وقال:

– ولكن يجب أن نحذر الشيخ مرزوق ومَن معه...

فسأله الشيخ سعيد باستغراب:

– ما بالهم؟

– يقفون دائماً مع أهل القرية، وكنت أتحاشاهم، لا أحبّ أن أصطدم بهم.

– اسمع يا صالح، لقد أتيتُ إلى هذه القرية، بعدما سمعتُ كلامك عنها، وعن أرضها الخصبة، وإلحاحك الشديد أن أعود،

وأستثمر أموالي فيها، ولن أرضى أن يقف أحد في طريقي...

وبلهجة قاسية أكمل:

– إن كنتَ تريد للك نصيباً من مشروعي، أَزِحْ عن طريقي كل ما يعيق تنفيذه...

ردّ عليه الإمام صالح وهو يكزّ أسنانه:

– لا تخَف، فالموت سيقف في وجه من يحرمني نصيبي!!!...

11

ذات مساء بعيد، حمل صادق حقيبته واتجه إلى موقف السيارات المغادرة للقرية، وقف الشيخ مرزوق خلف جموع الوجوه التي لا يعرفها، والتي قدمت لتوديع أبنائها من القرى المجاورة، ركب صادق السيارة التي ستقطع بأفكاره نحو مائتين وخمسين كيلومتراً، ليصل بعدئذ تلك المدينة الصغيرة التي تحتضن في طرفها الشمالي مطاراً صغيراً. لم يأت أحد من القرية الصغيرة ليصافح صادقاً ويودّعه، ويتمنى له السلامة، عدا الشيخ مرزوق، وفاضل صديقه، وذلك الوجه المعفّر بالتراب والذي لبس في عيون أهل القرية الصغيرة ثوب الجنون، كان يبتسم ببراءة وكأن ابتسامته تدفع صادقاً للركوب في السيارة الراحلة، لم يهتم كثيراً بموقف "ابن الخفية" هذا، فهو في نظره مجنون!!!

كان يحاول جاهداً أن يرحل صادق، حتى حينما علم أن صادقاً قد أنهى دراسة المرحلة الثانوية في تلك المدينة التي تحتضن أقرب مطار.

قبل أن يلملم ملابسه، ويضع معها في حقيبته كل ذكريات هذه

القرية الصغيرة، بدأ هو ينصب الأنوار هنا وهناك ويستشير كثيراً في لون لباسه الذي سيبتاعه. لقد أخفى صادق في داخله كل الأسئلة وحزم أمره وسافر!

12

منذ أن وُجد صادق في هذه القرية، وهو يراه في لباسه المهلهل والممزق، يطوف الأزقة، تعلوه الأتربة ويطارد النساء؛ "ابن الخفية" لقب أطلق على هذا المجنون الذي يجوب أزقة القرية دون أن يعرف أحد من يكون، "ابن الخفية" هذا لا أحد يعرف عنه شيئاً؛ لا من أين أتى، ولا ابن من هو... لا أحد يشتكي منه، فهو مسا لم لا يؤذي أحداً، وحين تتعالى ضحكات النساء المائعة، يكون هو قد جلس في مكان ما، وحين يمررن من أمامه، ينظر إليهن بإمعان، وحين يتجاوزنه، ينظر إلى مؤخراتهنّ ويفتح ذراعيه ليصوّر لنفسه حجم تلك المؤخرات...

"ابن الخفية"... لقب يناديه الكل به ويستجيب لهم، وحين يكون غاضباً ويسمع ما لقب به؛ ينظر لمن ناداه بغضب ويمسك عضوه الذكري ليوجّهه لمن يناديه، ويركض خوفاً من ردة الفعل، على رغم أنه لم يُسمع أن أحداً في القرية قد لامه أو ضربه البتة...

هناك من قال إنه كان يعشق فتاة جميلة تصغره بعامين في قرية بعيدة عن القرية، وأنه أخبر والده عنها ليزوّجها له، وحينما ذهب والده وشاهدها أعجبته جداً؛ فخطبها وتزوّجها لنفسه، وضاقت

الأرض مع اتساع حبه لها، وقبل أن يهم بمواجهة أبيه قال له إمام مسجد تلك القرية، حينما علم بأمره أو حينما شكا الابن أباه، عامل أباك بأدب ثم قرأ عليه الآية ﴿فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾.

فحبس قهره بداخله وخرج من القرية على غير هدى، ليصل إلينا بعد مشقة دامت أكثر من ثلاثة عشر يوماً؛ استنفدت كل أفكاره وعقله...

وهناك من قال... إن أباه كان إمام مسجد القرية، يعرفه الكل بصلاحه وتقواه، وإنه كان ذا رأي حكيم، يلجأ إليه الكل في السراء والضراء، وله مكانة عالية جداً في النفوس. وفي فجر آخر يوم من شهر شعبان، انتظره أهل القرية ليؤذّن ويصلّي بهم، لكنه لم يأتِ. تبادلوا النظرات بينهم، فمنذ قرابة خمسٍ وثلاثين سنة لم يتأخر عن أداء الأذان والصلاة في أي فرض، ولم يغادرِ القرية دون علمهم البتة...

فصلّى بهم رجل أشيب بعدما رفع الأذان، وبعد الصلاة ذهب الجميع إلى داره للاطمئنان عليه، فسمعوا بكاء زوجه ونحيبها؛ فأخبرتهم دموعها بوفاته.

ثم صامت الأرملة أربعة أشهر وعشرة أيام عن الزينة والفرح. وبعد انقضاء العدّة؛ اجتمع أهل القرية وتناقشوا كثيراً، وأقروا أن يوكلوا لابنه إمامة المسجد، وأبلغوه بمرادهم هذا؛ فتباهى الابن بنفسه كثيراً، ولكنه لم يعطهم موافقة رسمية بذلك، ولم يطق صبراً؛ فاستغل فترة ما بين الأذان وإقامة الصلاة لكون دارهم قريبة من المسجد، ليذهب إلى

أمه ويستشيرها في أمر خلافته لأبيه في الإمامة؛ دخل الدار وحمائم الفرح تطوف فوق رأسه، فوجد أمّه تحت جسد رجل!!!...

خرج بسرعة مذهولاً وكأن الأرض التي تحمل خطواته، قد لبست قطعاً من الجليد لا يكاد ينصب عليها طوله حتى يترنّح ويسقط، ولم يجدْ نفسه إلا خارج القرية... التي لم يعُد إليها بعدئذٍ البتة.

ترك أمه تُسبل الغطاء على جسد من فوقها...

وترك رجال القرية ينتظرونه ليقيم لهم الصلاة!!...

لم يحتمل هول الموقف فأصابه مسٌّ من الجنون...

وهناك من قال وقال... ولكن تبقى الحكاية الآنفة الذكر هي التي نبتت في أذهانهم واستوطنت بدواعي حبّ أهل القرية لحكايات النساء...

ومن هنا جاء لقب "ابن الخفية" الذي عرفه الجميع به.

لا أحد يعرف حكايته في القرية عدا أم سعد تلك العجوز التي ماتت قبل سنتين، وجدوها ميتة وهي ساجدة في صلاة الفجر، كانت تعطف على "ابن الخفية" وترحمه، وكانت ترفع صوتها وعيداً لأبناء القرية إن هم ضايقوه. كان "ابن الخفية" يجلس كل صباح عند بابها، فتفتح أم سعد الباب وكأنها على موعد غرامي مع "ابن الخفية" لتعطيه بعض الطعام، وكان هو ينتظر أن تفتح الباب موارية جسدها بغطائها الأسود لتقدم له إفطاره وغداءه وعشاءه. وحين يتناول كل ذلك يذهب بعصاه التي يهشّ بها على الأطفال، وينام تحت شجرة أو يتسكع في الطرقات...

أم سعد حين سمعت الأقاويل عن "ابن الخفية" قالت لجمع النساء

اللاتي يأتين كل ضحىً عندها، أنا أعرف حكاية "ابن الخفية"، وهي لم تكن تسميه "ابن الخفية"، بل كانت تسميه (علي) على اسم ابنها الذي سافر عن القرية و لم يعد منذ عشرين عاماً. وكان كل ما تجيب به على النساء حين يسألنها عن حكاية "ابن الخفية"...

"الله يستر عليه... ابن ناس غدر به الزمن" وتصمت.

وكانت أم سعد لا تنظر إلى النساء اللاتي يزيد شغفهن لمعرفة الحكاية، وإنما تسرح بعيداً، وكأنها تنظر إلى "ابن الخفية" حين كان ابن ناس قبل أن يغدر به الزمن...

ماتت أم سعد... وماتت معها حقيقة "ابن الخفية"...

13

لم يصلِّ صالح الوفاق إمام القرية صلاة المغرب بهم، فالكل كان يعرف أنه رافق الشيخ سعيد، ليساعده على حمل أغراضه، بعدما بنى له داراً كبيرة، فصلّى بهم الشيخ مرزوق. وبعد أن أتمّ الصلاة، شاهده الكل وهو ينظر صوب جهة المدينة، الجهة نفسها التي كان يرقبها كل شروق وكل غروب. وأدرك أهل القرية أن في جعبته كلاماً كثيراً لا يستطيع معه صبراً. لم ينظر إلى ظهور التعب على ملامحهم، وقال لهم: سألقاكم هناك، وقد أشار بيده إلى الجهة الشمالية، بعد صلاة العشاء إن شاء الله، ورحل إلى داره...

لم يصلِ الشيخ مرزوق بهم صلاة العشاء، فهو لم يحضر إلى المسجد. فصلّى بهم البدوي صمعان.

بعد أن تأخرت الصلاة عن موعد إقامتها بسبب تدخل "ابن الخفية"، الذي أبى أن يترك البدوي صمعان يصلي بهم، وكان "ابن الخفية" يريد أن يصلّي بهم. وحينما شدّه البدوي صمعان من ثوبه وأخرجه من المسجد، سمع المصلون لأول مرة "ابن الخفية" يقول لهم إنه كان سيصبح إماماً في قريته.

وسمعوه وهو يركض مبتعداً عن المسجد ويصرخ "بدو يا رسول الله... بدو يا رسول الله".

14

اجتمعوا بعد صلاة العشاء عند المكان الذي حدّده لهم الشيخ مرزوق، فوجدوه جالساً يعبث بيديه في الرمل، وبجانبه فاضل، بعدما سافر صادق، وحين اجتمع أهالي القرية، أشار بيده أن يجلسوا، فجلسوا دون أن يتكلم أحد.

قال لهم:

– أحذركم من جوعكم، ومن غفلتكم، أحذركم من هذا الذي يُدعى ابن النخال ومعه صالح الوفاق إمام القرية، لقد أتى إلى هنا، فأطعمكم، وسدّ جوعكم، ولكنه سيأكل طعام أطفالكم، ومن ثم سيرحل بعدما يترك لكم غسيل يديه، ولربما ينسى فتاتاً من طعامه،وذلك هو رزق عشائكم، وقد لا يترك لكم شيئاً، لتناموا على لحاف غشاوة دموعكم، لا تكونوا بيده عصاً يضرب بها أجسادكم!!!".

تجرّأ أحدهم ليقطع كلامه قائلاً:

– نحن يا شيخ نقدّرك ونحترمك، ولكن ليس لنا سبيل سوى أن نطاوعه، فأنت تعلم ما حلّ بنا من جوع وقحط ومرض...

رفع الشيخ مرزوق نظره وقال:

- أعلم بمصيبتكم، ولكني أعلم أنكم رجال أشداء، تحتملون كل شيء. فلنتعاون جميعاً؛

فئة منّا تحفر الآبار، وفئة تتولى الزراعة، وفئة مسؤولة عن الرعي، لنحتمل، ونقف مع بعضنا، فالقحط وعدم نزول المطر يطلب منا أن ندعو الله ونصلي صلاة الاستسقاء، وهذا لن يدوم طويلاً إن شاء الله.

- نخاف يا شيخ على أبنائنا من الموت جوعاً...

- سأقف معكم، ونقف جميعاً مع بعض، ولن نبيع متراً واحداً من أرضنا، فهذه الأرض ليست لنا، وإنما لأولادنا من بعدنا، وإن بعناها، فماذا يبقى لهم؟!

- لهم الله يا شيخ...

- ونِعمَ بالله، ولكن من يرضى أن يكون أبناؤه عبيداً عند هذا الشيخ؟!

النزعة القبلية تسري في دمائهم، فلما سمعوا كلمة "عبيد" فار الدم في عروقهم، ولزموا حيالها الصمت.

لم يدعِ الشيخ مرزوق الصمت يستمر طويلاً وقال بعدما مسح كل الوجوه بنظراته:

- ليتنا نستطيع أن نقول الحقيقة كاملة دون نقصان أو تحريف، ليتنا نستطيع فعل ذلك دون أن نجد من يبتر ألسنتنا ولا يغلبنا هاجس التلفُّت إلى الوراء...

كانت كلماته تدفعُهم لتحقيق ذواتهم، ترسم لهم طريق الأحلام الذي لا يعرفون ترابه، عذبّتهم كلماته كثيراً وكأنه سكب على

وجوههم ماءً ساخناً، ما بداخلهم يدفعهم لأن يصمتوا في هذا المساء المظلم، أحدهم وقف وقال له:

– لا نستطيع، لا نستطيع، نريد أن نعيش ويعيش من بعدنا أطفالنا.

حَدَجَه بنظرة رأفة وقال بهدوء:

– أنا أستطيع فعل ذلك!

حيرة غامضة اكتست وجوههم، شدّتهم الحيرة نحوه، وأكمل الشيخ:

– لن يبتر لساني أحد، ولن تتعب رقبتي من الالتفات إلى الوراء!...

جلس من قام وكأنه صُدم بكلمات الشيخ، وكانت عيونهم تستقرّ على مخارج أحرفه، ينتظرون أن يصفع ضعفهم وتردّدهم وخوفهم... صمت برهة وكأنه يمارس الضغط على أعصابهم كما مورس هذا الضغط عليهم من قبل وأكمل:

– هل سمعتم أن الأموات يشعرون؟!!!

لجمهم بكلماته، تساقطت رؤوسهم على صدورهم، شعروا بشيء غريب ليس خوفاً ولا أمناً،شعور لم يشعروا به من قبل!!!

15

ذات فجر، وبعدما عاد صادق من دراسته بعد صلاة الفجر، وجد أمه سميحة على فراشها، سألها هل صلّتِ الفجر، فنظرت إليه بعينين متعبتين وأجابت بصوت واهن أنها للتوّ انتهت من صلاة الفجر، اقترب منها بخوف، وسألها عن حالها، فأشارت إلى صدرها وقالت، أحسُّ بثقل ههنا. لم يكن عندئذ يعرف ماذا يفعل، وفجأة تذكّر الشيخ مرزوق، فخرج من الدار مسرعاً إلى بيت الشيخ مرزوق، طرق عليه الباب بقوة، وحين فتح الباب، سحبه من ملابسه وهو يبكي قائلاً أمي مريضة... أمي مريضة، هرولا معاً إلى الدار، وحين دخلا على أم صادق، وجدا عينيها شاخصتين إلى سقف القرية، انحنى إليها صائحاً، أمي، أمي... وما لبث الشيخ مرزوق أن سحبه ليكون خلفه، ومدّ يده ليغلق عيني أم صادق إلى الأبد.

كل أهل القرية كانوا في دار أم صادق، جاؤوا معزين في وفاة أمه سميحة، وعلى مدى ثلاثة أيام العزاء لم يفارقه الشيخ مرزوق، وكذلك صديقه فاضل، وكذلك ياسمينة التي كانت تستقبل النساء المعزّيات...

قال الشيخ مرزوق في انتهاء العزاء:

– لا تحزَن يا بني، أعلم أن فقدك أمك كان مصيبة كبيرة عليك، وأعلم أنك عانيت مرتين؛ من موت أمك وموت أبيك من قبل... ولكن أنا أبوك من الآن، فلا تحزَن وادعُ لهما بالمغفرة...

سادَ صمت طويل بينهما، وفجأة قطع الشيخ مرزوق الصمت قائلاً:

– ألن تذهَب إلى المدينة للدراسة بالجامعة...

رفع صادق رأسه نحوه، ونظر إلى وجهه بعينين اغرورقتا بالدمع وقال:

– نعم...

– إذن جهّز نفسك وسافر يا بني، والله يوفقك...

16

حين عاد صادق إلى القرية، وعلم بموت الشيخ مرزوق، لم يجد وسيلة للاتصال بياسمينة، فأمه سميحة قد ماتت، وانقطعت ياسمينة عن زيارتها، لم يبق له سوى ذكريات الطفولة معها، لم يكن عمرها سوى ساعات حين ماتت أمها، وانتقلت مع أبيها إلى هذه القرية، لتستقر في الدار التي ابتاعها الشيخ مرزوق من صمعان البدوي. كانت طفلة جميلة، تخرج كل صباح مع والدها للدكان الذي يعمل فيه والدها، كانت تجلس تارة بجانبه، وتارة أخرى كانت تلعب مع الأطفال، وخاصة مع ابن جارتهم صادق، فلم يكونا يفترقان، سوى للنوم. وحين بلغت السنة التاسعة من عمرها، كانت لا تخرج من الدار سوى لدار جارتهم، لتساعدها في أعمال البيت، وتجهّز معها الغداء لها ولأهل الدار، حتى يعود والدها من عمله.

17

كان صادق قادماً من قرية بعيدة، هناك خلف جبل عالٍ، لا يعرف أحد ما خلف ذلك الجبل، قادماً لهذه المدينة التي لا يعرف لها وجهاً ولا حديثاً، غريباً يمر في شوارعها، وأبنيتها الغريبة، كان خائفاً، لا شيء يسلّيه سوى قضم أظافره والترقب، خائفاً جداً من الوجوه القادمة، في هذه السيارة الصفراء اللون بدأت الحياة، ينثر نظراته هنا وهناك وتلوح له القرية بأبعادها كافة، لا يجد أمامه سواها، سيارات كثيرة تعبرهم ويعبرونها، كان ينظر إليهم ويجد نفسه مختلفاً عنهم، يقرأ في نظراتهم العابرة؛ أنهم يدركون أنه غريب عن هذه المدينة، ذلك ما تبادر إلى ذهنه وخاصة حينما أوقفتهم الإشارة الحمراء، لحظتئذٍ تمنّى أن يترجّل من السيارة ويمشي على الأرصفة، لعلها لا تقذفه حين يطؤها بعدما يقطن هذه المدينة.

سُمرة وجهه وخشونة جلده التي يحاول دائماً أن يخفيها، منذ أن ابتعد عن المطار، تحت قماش ثوبه وشعر يده ورأسه، وحكايات متعلقة في ذاكرته تنزّ منها عادات وتقاليد، أتى بها من قريته، حتى اكتراع الماء؛ كل ذلك يرشدهم إلى أنه غريب عن هذه المدينة، كان

يخاف كثيراً أن يدركوا أنه غريب عنهم لا يشبههم، لم يقطع تواصل تفكيره وخوفه سوى وقوف السيارة أمام مبنى ذي مساحة صغيرة وعالٍ؛ كان هو ذاك الفندق الذي أوصاه الشيخ مرزوق أن يقطنه لرخصه وقربه من مبنى الجامعة.

نزل من السيارة بعدما دفع بدل النقل، وصعد الدرجات الخمس عشرة ودفع الباب الزجاجي ودخل الفندق...

18

قال الشيخ سعيد لصالح الوفاق إمام القرية:

– هل رأيت ما فعل صاحبك؟

– ومن هو صاحبي؟

– الشيخ مرزوق؛ لقد منع أهالي القرية من بيع أراضيهم.

قال الإمام صالح الوفاق، وقد تملكته الدهشة؛ أحقاً ما تقول!!

فردّ عليه بثقة: أجل هذا ما حصل، وأنت تعرف أننا اتفقنا مع بعضهم على السعر و لم يأتوا، لنسجّل الأرض باسمي عندك، وحين سألتك قلت لي: لا تضغط عليهم سيبيعون، سيبيعون... لذلك لم يأتوا على الوعد، أنت تعرف...

– أنت تعرف أنني خسرت الكثير لأفوز بالأراضي، وتعلم أن مشروعيَ متوقف على هذه الأراضي، فما الحل الآن؟...

سرح الإمام صالح بعقله بعيداً، و لم يعد إلى موقعه إلا عندما هزّه الشيخ سعيد بركبته، قائلاً:

– أهالي القرية يسمعون كلام هذا الوغد، قاتلَهُ الله.

– لا تخَف يا شيخ سعيد، سأكسر شكوتهم، ولكني أريدك معي.

– وبمَ تريدني؟
– نقتله...
اهتزّ الشيخ سعيد لسماع كلامه، فقال الإمام صالح:
– ولماذا خفت، أهي المرة الأولى التي نقتل فيها!!
– لا، ولكني تبت إلى الله ولن أقتل أحداً.
– يا شيخ سعيد، نحن نصيد في رحلاتنا الأرانب والطيور لتكون غذاء لنا أليس كذلك؟!
– نعم ولكن تلك بهائم لا إنسان!!
– لا بدّ أن تقتل لتعيش، أو سيضيع مشروعك للأبد.
– أنت تعرف أنني قادم جديد إلى القرية، ولا أريد أن يكون مقدمي بجريمة قتل!
– لقد صدقت، أنا سأكلّمه، وإن لم يستجب لطلبنا فسيكون هناك أمر آخر.
– بحكمتك تستطيع أن تضعه في صفنا.
ضحك صالح الوفاق، إمام القرية، وقال:
– أنت لا تعرف الشيخ مرزوق!!!...

19

ما يؤلم الشيخ مرزوق كثيراً، هم أهالي القرية الضعفاء، الذين كانوا يملكون تراب هذه القرية، قبل أن يأتي شيخ القرية السّمين، ويسيطر على جوعهم وحاجتهم، ليبتاع منهم الأراضي بثمنٍ بخْس، ومن ثم يتركهم أُجَراء عنده، بيومية تكاد تكفي طعامهم وملبسهم بمشقّة.

فأول مرة قدم فيها البدوي صمعان إلى القرية بعد أن غاب أكثر من سنة، قال للشيخ مرزوق:

– كيف ترضَون أن يكون هذا الرجل هو إمام قريتكم؟!

– الأمور تأتي، يا أخي، على عكس ما نريد.

– أنتم لا تعرفونه مثلما أعرفه أنا.

– وماذا تعرف عنه...

– في إحدى سفراتي رأيت الإمام صالح هذا، لقد صليت خلفه صلاة جمعة، حيث مكثت في تلك القرية عشرين يوماً، كانت تلك القرية تعيش على صيد البحر، وذات يوم بين الأذان وإقامة الصلاة، وجدت جمعاً من البشر عند باب كبير القرية وسيدها، فحثني الفضول لاستقطاب الخبر.

فسألت أحد أهالي القرية، عن سبب ذلك التجمع فقال لي:

– أرأيت ذاك الطفل الصغير؛ ثم أشار إلى طفل صغير، ينحني له سيد القرية، وهو يبكي، كان رث الثياب، وكأنه قد خرج للتوّ من عاصفة هوجاء.

فقلت:

– ما به؟

– صالح الوفاق إمام القرية الفاسق فعل فيه اللواط.

في تلك اللحظة مر في ذاكرتي صالح الوفاق إمام القرية وهو يخطب في المصلين خطبة الجمعة، وهو يخيف المصلين من عذاب القبر، وقلت مندهشاً:

– أتقولَ الصدق؟

– اسمع بنفسك ما يقوله ذاك الطفل.

– وأين الإمام صالح الآن؟

– لا أحد يعرف عنه شيئاً.

وبالفعل لم أجده مع الجمع، على رغم أنه لا يترك اثنين يتحادثان إلا ويكون ثالثهما... في تلك اللحظات ارتفع صوت لإقامة الصلاة، وكان ذلك الصوت ليس صوت الإمام صالح!!!...

قال الشيخ مرزوق:

– لا حول ولا قوة إلا بالله، هل أنت متأكد أنه هو؟

– نعم أيّها الشيخ، فقد صلّيت خلفه أكثر من صلاة.

– أتعرف يا صمعان؛ إنني في بداية مجيئه إلى هذه القرية، ورأيته يتحدث كثيراً عن الدين، ويظهر للأهالي أنه درس على يد الشيخ فلان

والشيخ فلان، ارتبت فيه، فهل يعقل أن من يتصف بهذه الصفات، يجوز له أن يكون إماماً لقرية صغيرة؟

وقبل أن يغادره البدوي صمعان سأله الشيخ مرزوق:

– هل يعرفك؟

– أنا أعرفه، ولا أعتقد أنه شاهدني إلا لمحاً.

– الله أكبر، مساكين هم أهالي القرية، فكل من قرأ عليهم آية من القرآن الكريم، أو قال حديثاً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقصّر ثوبه وأطال لحيته، يصبح لديهم مفتياً!! لقد لعب بعقول أهالي القرية جيداً...

20

اجتمع صالح الوفاق والشيخ سعيد في داره بعد صلاة العشاء على وليمة شواء وتباحثا في موضوع أراضي القرية فقال صالح:

– الشيخ مرزوق اجتمع بأهالي القرية، وحثهم على العصيان...

– لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم...

– دعِ الموضوع لي، فأنا فكرت بخطة محكمة للتخلص من الشيخ مرزوق هذا...

– لن أكونَ معك... فأنا أعرفك جيداً...

– لا تخَف فسترافقني فقط، ولن تفعلَ شيئاً...

قطع حديثهما دخول "ابن الخفية" فجأة عليهما، فسكتا...

نظر صالح الوفاق إلى ابن الخفية صامتاً برهة من الزمن، وحين تأكد أن "ابن الخفية" أتى ليشبع بطنه، ابتسم بخبث وقال له:

– أتريد قطعة لحم مشويّة؟!...

سال لعاب "ابن الخفية" ظاهراً على ذقنه وقال بسرعة:

– نعم... قطعة لحم مشويّة... نعم أريدها...

وتعالت ضحكة صالح الوفاق مع ضحكة الشيخ سعيد، و لم يصمتا حتى تقاطع ضحكهما مع قول "ابن الخفية":

– أريد هذه – وأشار إلى قطعة كبيرة من اللحم –...

التقط صالح قطعة اللحم وأعطاها ل"ابن الخفية"، الذي أدخلها بسرعة إلى فيه...

قال له صالح:

– كُلْها وإن أردتَ المزيد أخبرني فسأعطيك...

أخذ ابن الخفية يمضغ قطعة اللحم التي كانت أكبر من فيه، وقبل أن يسكنها جوفه، اقترب من صالح الوفاق إمام القرية مادّاً يده، فأمسك صالح بيده وقال له:

– أتعرف من أين لي هذه اللحمة المشوية؟

– من فخذ الخروف.

وكأنه لم يسمعه، قال:

– هناك – وأشار إلى جهة... وأكمل... لقد أعطاني إياها صادق.

– هل تريد قطعة أخرى؟!...

– نعم، ولكن كبيرة.

– اذهب إلى صادق وهو سوف يعطيك...

وحين همّ "ابن الخفية" بالذهاب في الاتجاه الذي أشار عليه صالح الوفاق إمام القرية، جذبه الإمام صالح من ثوبه، وقال له بصوت خفيض:

– إن ذهبت وحدك فسيأكلك الذئب...

التصق "ابن الخفية" بالإمام صالح خوفاً...

– لا تخَف، واقترب من أذنه وهمس، خذ معك الشيخ مرزوق، فالذئاب تخاف منه، ولكن لا تقل لأحد عن هذا. اذهب أنت معه وحدكما، حتى لا يسرقوا اللحم، وإن رأى أحد صادقاً غيركما؛ فلن يعطيك اللحمة المشويّة... اذهب الآن إلى دار الشيخ مرزوق دون أن يراك أحد، وقل له إن صادقاً عاد من سفره وهو هناك ينتظرك لأمر مهمّ...

أفلت "ابن الخفية" من يد الإمام صالح وركض بحبور إلى دار الشيخ مرزوق، ولحقه صالح الوفاق إمام القرية والشيخ سعيد متخفيين، وحين وصل "ابن الخفية" إلى دار الشيخ مرزوق، شاهداه يطرق باب الشيخ مرزوق ويلتفت يمنة ويسرة، فتح الشيخ مرزوق الباب، وتحدث إلى "ابن الخفية"، أشار بيده ليدخل "ابن الخفية"، ولكن يبدو أنه رفض الدخول. وحين تحدث مع الشيخ مرزوق وجدا ملامح سحنته تتغير...

– هل صادق عاد؟

أجاب "ابن الخفية" دون أن يدرك ما يقول:

– نعم، وهو هناك ينتظرك لأمر مهمّ...

شعر الشيخ مرزوق بشيء غريب؛ فما لبث أن دخل الدار، وفي لحظات خرج بعباءته، وأمسك "ابن الخفية" يد الشيخ مرزوق، وانطلقا في الاتجاه الذي حدده له صالح الوفاق إمام القرية. حينئذٍ لحق بهما الإمام صالح وشيخ القرية سعيد.

كان الظلام يعم الصحراء في تلك الليلة المظلمة، وكان الشيخ

مرزوق يحثُّ الخطى ويده مشدودة بيد "ابن الخفية". كانت هناك نار تشتعل، ورائحة شواء تفوح في الأرجاء، أشار "ابن الخفية" إلى مكان الرجل الجالس متربّعاً خلف النار، وقال بصوت عالٍ:

– هو ذا صادق، وحين اقتربا وجدا رجلاً ملثماً لم يعرفاه. أشار لهما أن يجلسا، وقال:

– هل تريد قطعة لحم مشوية؟

أجاب "ابن الخفية" بحركة من رأسه، أي نعم.

– قال له سأعطيك القطعة، ولكن تأخذها وترحل لأن لديّ حديثاً مع الشيخ مرزوق.

أخذ "ابن الخفية" قطعة اللحم وولى عائداً من حيث أتى.

قال الشيخ مرزوق:

– مَن أنت؟

– لا تخَف، أنا أعرفك جيداً.

– وأين صادق.

– صادق لم يأت معي، ولكنه أرسل لك حاجة.

– وأين هي؟

– هناك؛ وأشار بسبابته خلفه وأكمل:

– في خُرج ناقتي.

– وهل لي بها الآن؟

– نعم قُم معي.

قام الرجل ولحقه الشيخ مرزوق، وهما في طريقهما إلى الناقة، قال الشيخ:

- لم تعرِّفني باسمك، وما علاقتك بصادق، وقبل أن يجيبه الرجل، كانا قد وصلا الناقة، فأخرج من خُرج الناقة بندقية... وما هي إلا ثوانٍ حتى كان رمل الصحراء يشرب دماء الشيخ مرزوق.

21

حين رأى صادق صديقه فاضلاً للمرة الأولى، منذ عودته، كان شاحب الوجه، يرتسم حول مقلتيه سواد قاتم، كان بالفعل هو الشخص الوحيد في القرية الذي فقد الشيخ مرزوق، رحمه الله، كل ذلك كان بادياً على محيّاه من أثر السهر والدموع، اقترب منه حين ساقته الخطوات نحو المكان الذي كان يعشق الشيخ مرزوق الجلوس فيه، عندما يتعبه التفكير ولا يجد من يبادله الهموم، وجده هناك داسّاً رأسه بين ركبتيه، اقترب منه ووضع كفه على شعر رأسه. رفع فاضل رأسه بثقل وكأنه كان ينتظره، ابتسم ابتسامه مزجتها الدموع وهصرها الحزن، بثقل ترجّل فاضل من مكانه، ضمه إلى صدره بقوة وبكى على كتفه، لم يستطع صادق أن يفعل شيئاً سوى أن يستقبل لفحات أنفاسه الحارة ونشيج بكائه، تراخت يداه عن ضمِّه وتهالك إلى موضع جلوسه، انحنى له صادق ووضع يده على ركبته وجلس بجانبه، لفّتْهما مدة من الصمت ليست قصيرة، ولكن الصمت لم يدُم حيث أنشأ يحلق بعينيه أمام فضاء واسع، وقال فاضل بحزن:

– مات الشيخ مرزوق يا صادق، مات وتركنا هنا، لا نعرف ماذا

نفعل، وجدوه جثة هامدة مع طلائع فجر جديد، وجدوه بعيداً عن بيوت القرية، مُرميً على الأرض التي تضرجت بدمائه، أهكذا يموت الأوفياء؟! أهكذا يموت من يقول الحق؟!

لقد تنبّأ بموته، كنت أستشعر بكلماته أنه لا يخاف منهم أبداً، ولكنه كان ينتظر أن يموت على أيديهم.

كل أهالي القرية يا صادق قد علموا بموته وبكوا بصمت، دخلوا دورهم وبكوا بين جدرانها، لقد دسّ الصمت في أحشائه القرية حتى أنك لا تسمع يوم موته في القرية سوى نشيج بكائهم، قتلوه يا صادق... قتلوه...

رمى برأسه بين ركبتيه وبكى بكاءً عنيفاً، ذهل صادق بما قاله، سحب رأسه وضمّه إلى صدره، سحت من عينيه دموع تركها تسقط على رأسه...

بصوت خفيض قال له:

– ماذا حصل في غيابي؟!!!

مسح دموعه، وكان قد أدركه الصمت مرة أخرى، وقبل أن يعيد صادق عليه لهفة سؤاله... أجاب وكأنه يكلم نفسه:

– صالح الوفاق إمام القرية قال بعد الصلاة على جثمان الشيخ مرزوق وحين سأله أحد أهالي القرية عن سبب موته قال:

– لقد صلّى معنا صلاة العشاء الأخيرة، لم يكن فيه شيء من ريب أو خوف – تناثرت نظراته هنا وهناك وكأنه خائف من شيء ما، وحين وجد كل العيون مصوّبة نحوه استمدّ شجاعة من مسّ لحيته وكأنه يعصرها وأكمل:

– وغادرَنا كعادته في الأيام السابقة، لم يقل لنا شيئاً، و لم يسمع حتى الأحاديث التي دأب على سماعها كل يوم بعد صلاة العشاء، في البدء ظننت أنه متعَب أو لديه موعد، – شمل الكل بنظراته، وحين أدرك بنظراته شيئاً من عدم القبول أكمل على عجالة: –

– هكذا كنت أظن...

وغادرنا الإمام صالح بعدما حثّنا على حمل جثمانه رحمه الله.

أما شيخ القرية سعيد النخال، فقد قال حين وجد أهالي القرية يلوكون سيرة الشيخ:

– رأيته في المسجد، ردّ على تحيتي، ومن بعد رأيته ميتاً كما رأيتموه أنتم...

كل رجال القرية همُّوا بكلمات خفيضة قبل أن يرفعوا الكفن، لم يكن حديثهم سوى كلمات متشابهة فقط.

فجأة وقبل أن يضعوا الكفن على رؤوسهم تجرأ ذلك المجنون "ابن الخفية"، وقال بصوت عالٍ:

– لقد قتله لسانه!!!...

حاول إمام المسجد وشيخ القرية أن يسرقا صراخ "ابن الخفية" من أسماع أهالي القرية بحثهم على حمل الجثمان إلى المقبرة. وقبل أن يخرجوا من المسجد؛ تفوّه الإمام صالح بكلمات عجلى، وهو يشير إلى "ابن الخفية" الذي ألبسه لباس الجنون.

22

بعد شهرين من وفاة الشيخ مرزوق، أمسك صالح الوفاق إمام القرية بيد فاضل وهو خارج من الصلاة وقال له:

– هل تريد ياسمينة زوجة لك؟

نظر إليه فاضل بدهشة، وقال:

– هي لصادق...

وقبل أن يُكمل حديثه، قاطعه الإمام صالح:

– ولَمَ لا تكون لك؟!

– لأَن صادقاً يريدها زوجة له، وكنت معه حين اتفق مع الشيخ مرزوق رحمه الله أن يزوّجها له بعد أن ينال شهادته، وقد وعده الشيخ بذلك...

– صادق لن يعود...

– ماذا؟ أتقول ذلك جادّاً؟

– صادق لن يعود، لقد وردتني أخبار أنه تزوّج هناك من المدينة، بعدما علم بموت مرزوق...

– لن يعود؟

– لن يعود فمن يعش في المدينة لا ترضِه القريةُ أبداً...

صمت فاضل وكأنه فقد النطق، أو كأنه يقلب الأحداث الجديدة في عقله...

لم يمهله الإمام صالح كثيراً، بل قال له:

– اسمع يا بني، أعلم أنك تحب ياسمينة، ولكنك تعرف أن صادقاً يريد الزواج منها، ولكني سأزوِّجك بها، فأنا مسؤول عنها بعد وفاة أبيها، سأزوجك إياها ولكن بشرط...

– وما شرطك؟...

– حين يعود صادق؛ أن لا تدعه يمكث طويلاً...

– ماذا؟!

– هو ما سمعت، خوِّفه بنا، اعمل أي شيء، ولكن لا يجلس في القرية، أتفهمُني؟

– ولكنه صديقي، ولا أستطيع أن أفعل به هذا، وأنت تقول إنه لن يعود...

– دعك من هذا، إن عاد لأيّ سبب، لا بد أن تجعله يترك القرية، وإذا لم تفعل فلن أزوّجك ياسمينة، سأتزوّجها أنا...

قال الإمام كلماته تلك، ثم مضى وتركه خلفه حائراً، ما لبث أن لحقه فاضل وناداه بمسمّى الشيخ، لأول مرة يسمع منه الإمام صالح اسمه مسبوقاً بالشيخ، توقف، حتى وصل إليه فاضل، الذي قال له:

– هل ستزوّجني بها؟

أومأ إمام المسجد برأسه بالإيجاب...

وبإصرار لم يعهده من قبل قال فاضل:

- سأفعل ما تريد!!!...

23

قال الشيخ سعيد النخال:

– الآن، أشعر براحة كبيرة، بعد موت مرزوق...

رد عليه إمام القرية صالح:

– ألم أقل لك إنني أستطيع أن أبعده عنا، فلا شيء يقف في طريقي...

– قول وفعل... والآن قد خلت لنا القرية وحدنا...

– لم تخلُ القرية لنا بعد، لا تنسَ أن شباب القرية قد ورثوا عن آبائهم صلابة الرأي...

– دع شباب القرية لي...

– بما أنك ستتولى أمر شباب القرية، فسأعلمك أنني عملت عملاً سيكون ضربة موجعة لصادق...

– يا الله... نسينا صادق، أخاف أن يكون مرزوقاً آخر، خاصة إذا عرف أننا قتلناه...

– لا تخَف منه أبداً، سيكون مشغولاً بنفسه عنا...

– كيف؟

– صادق يحبّ ياسمينة بنت مرزوق، ولديه وعد أن يتزوّجها إن هو أنهى دراسته، وأنا ضربته بصديقه فاضل، الذي سأزوِّجه ياسمينة...

– بدأت أخاف منك يا شيخ صالح...

– لا تخَف، فأنا تلميذك النبيل...

تمتم الشيخ سعيد بينه وبين نفسه "بل تلميذ المال يا ذئب...".

24

قال البدوي صمعان لصادق بعد عودته من دراسته:

– لقد سمعت الشيخ مرزوق قبل أسبوع من وفاته، وهو يحادث إمام المسجد بعد صلاة المغرب، يقول له:

دعوني أمكث هنا على هذه الأرض بضعة أيام فقط، وبعدئذٍ، سأحمل كل أمتعتي وأرحل...

أعطوني تلك الأيام فقط، أعيش فيها عمراً كاملاً أنتظر أن يأتي...

رفع كفّه ومسح دمعة نزلت من عينه حين قال:

– أخاف أن يأتي من غربته ولا يجدُني...

وبعدئذٍ سأرحل ولن تطأ قدمي هذه الأرض التي اجتُثت من إحساسي؛ مد يده إلى كتف الإمام وقال له بكل هدوء:

– تملّك أعصابك وتحمّل زفير صدري... هذه الأيام القلائل فقط.

حدجه إمام المسجد بنظرات غاضبة احمرت لها وجنتاه، وتركه بعدما شاهد شيخ القرية يخرج من المسجد، انثنى بعطفه وذهب إليه، تحدث معه قليلاً، كان شيخ المسجد هادئاً كعادته؛ غير أن داخله كان يغلي من الغضب. ولأول مرة وجدت إمام القرية يغير من ملامح

وجهه ويبتسم بوجه الشيخ مرزوق، رحمه الله، ويشير بيده بأن يرحل؛ وكأنه بذلك قد أمهله تلك الأيام القلائل. وقبل أن يبتعد عنهم، الشيخ مرزوق، رفع إمام المسجد صوته قائلاً:

– تذكر... إنها فقط أيام قلائل...

كان الشيخ مرزوق كل يوم يجوب القرية من أطرافها الشمالية، ويجلس هناك حتى أذان الظهر، يحفر بعصاه التراب ويقلّبه وكأنه يبحث عنك داخله، كان ينتظرك أن تعود، ولما طال غيابك، عاد إلى القرية محمّلاً بالخيبة وانتظار القادم...

بعد كل صلاة كنت أراه مهموماً يرفع كفّيه إلى الله ويطيل الدعاء، لم يتركوه يجوب أزقة القرية، و لم يبالوا به، بل كانت عيونهم تراقبه أينما كانت وجهته، وبعد أيام عدة تعاضد إمام القرية مع شيخها ووقفا على بابه قبل أذان الفجر، أمراه أن يغادر القرية حالاً دون إبطاء، كانت عيناه مخضبتين بالنوم حين فتح لهما بابه، رجاهما أن يُمهلاه بضعة أيام ليجمع أغراضه ويبيع دكانه ومن ثم سيرحل، أغلق الباب بهدوء، وبعد صلاة المغرب، أراد أن يجتمع بأهالي القرية قبل الرحيل، ووعدهم أن يلتقوا في مكان بوحه وصمته نفسه، كانت عينا إمام المسجد تراقبانه، وكأنه يقرأ خفيض صوته حين همس الشيخ مرزوقِ لمن بجانبه للقائه مع أهالي القرية، في ذلك الوقت لم يستغفر الله إمامُ القرية، كعادته، بل انشغل عن طاعة الله بمراقبة حركات شفتي الشيخ مرزوق...

في ذلك المساء، لم ينطفئ سراج بيت الإمام، الذي ترك بابه مواربأ قليلاً. وقد رأيت بأم عيني – رفع يديه يشير إلى عينه اليمنى بإصبعه

- شيخ القرية دخل إلى بيت الإمام قبل منتصف الليل، وبعدئذ، دخل خلفه رجل غريب عن القرية، هيئته تشبه هيئة اللصوص وقطاع الطرق، وبدافع الفضول اقتربت من دار الإمام وألصقت أذني إلى جدار داره تحت نافذته المشرعة، وسمعت إمام القرية يقول:

- لا يكفينا رحيله... لا بد من قتله... فرحيله سيكون أمام أعيننا فقط، ولن يرحل عن ذاكرتنا أبداً...

تكاثرت الهمهمات المتشابكة والتي تحمل صيغة التأييد، وكانت هناك بعض الأصوات، التي لم أتبين فحواها، تحمل صيغة الاعتراض...

شيخ القرية، قال: دعوه يرحل... وحين يغادر القرية سنرسل إثره من يقتله... لا تقتلوه هنا... لا تلوثوا تراب القرية بدمه!!!...

كان الرأي الأخير هو المتمم لكل همهماتهم المتشابكة، اتفقوا جميعاً على رؤية خروجه من القرية... وكان ذلك هو اتفاقهم الأخير!!!...

حين انتهى البدوي صمعان من حديثه قال له صادق:

- هم مَن قتلوه إذن...

- وهل يوجد غيرهم...

- وفاضل، لِمَ لَمْ يقف في وجوههم؟! لِمَ لَمْ يخبرني برسالة عن نواياهم...

قال البدوي صمعان وابتسامة غريبة تفرُّ من شفتيه:

- انسَ صديقك فاضلاً للأبد...

- ماذا تقول؟!

– لا أريد أن أحمِّلك همّاً فوق همّك، ولكن فاضلاً انساق خلفهم بعد موت الشيخ مرزوق، وهو يعلم يقيناً أنهم هم من قتلوا الشيخ مرزوق...

– أنت تكذب يا صمعان... قل إنك تكذب...

– أنا بدوي ولا أعرف الكذب، ولا أخاف أحداً، ورائي قبيلة تأكل اللحم النيء... وصديقك الذي تدافع عنه سوف يتزوّج ياسمينة بعد موت أبيها...

بهت صادق بما سمعه. ونظر إلى صمعان بين مصدِّق ومكذِّب، جلس على الأرض بعدما ضمّ يديه حول رأسه...

25

ثقلت الدنيا على صدر صادق. بعد وفاة الشيخ مرزوق، شعر بأنه غريب عن هذه القرية، فالكل هنا أصبح يخاف حتى أن يلقيَ السلام عليه، عاش وحيداً في قريته مثلما عاش وحيداً في غربته.

وذات مساء طُرق باب داره، فقام متكاسلاً لفتحه، فوجد عند الباب صديقه فاضلاً، سلّم عليه ودعاه للدخول، فقال فاضل:

– دعْنا من الدُّور، تعالَ نخرج ونشتم هواءً نقياً...

خرج معه، لم ينطقا بكلمة واحدة، وحين جلسا على تلٍّ في الجهة الشمالية من القرية، لم يتملك صادقاً الصمتُ، فقد قال مخاطباً جليسه:

– فاضل...

– نعم...

– في داخلي أحرف كثيرة، أريد أن أخرجها، تكاد أن تخنقني...

شعر بارتباكه، كانت نظراته لا مستقرَّ لها، فأجاب:

– تفضّل قلْ كل أحرفك، قل ما في خاطرك...

– أنت رفيقي وأخي؛ وما بداخلي يا صديقي ضيمٌ أنت تعرفه

جيداً، تعرف كل تفاصيله، كُتمتْ أنفاسُه بداخلي غير أنه لم يمُت، أريد أن أبعثها من جديد...

جحظَ فاضل عينيه، وكأنه فهم ما يريد صادق قوله، تلفّت يميناً وشمالاً، أصابه الخوف والهلع...

كان فاضل إنساناً بسيطاً يرضى بجميع الحلول التي تُقال له، و لم يرَه أحد قط يعترض، يتحدث بكل ما لا يعجبه مع صديقه صادق وعندما ينتهي حديثه يقول:

– أنت لم تسمع شيئاً، – غمز بطرف عينه فوق ابتسامة رقيقة وأكمل – أليس كذلك؟!!!...

ابتسم صادق له وقال:

– طبعاً... طبعاً... أنت لم تقل شيئاً...

قام صادق من مكانه، اتجه إلى مكان بعيد عن موقع جلوسه، شعر برغبة شديدة بالانزواء، جلس القرفصاء في ظلِّ نخلة باسقة، بين نخيل كثير تشتهر به القرية، ضيق تمدّدت مساحته في داخله، كوَّم بيديه أحجاراً من تلك المتناثرة حوله. ضمّها في كفه وطفق يرمي حجراً تلو حجر. غُصَّةٌ في حلقه، لم تستطع ليترات الماء أن تزيحها. صرخة صاعدة من داخله دفعته دون شعور إلى المكان الذي يجلس فيه فاضل، وجده هائماً وكأنه سافر مع الغيمة التي عبرتهما للتوِّ، جلس في محاذاته وقال له:

– فاضل...

في البدء لم يجب على ندائه، بل اكتفى أن مال بوجهه نحوه وأكمل:

- لقد قررتُ الرحيل...

- ماذا تقول!!!...

لم تكن دهشته صادقة، فقد كان يشعر صادق أنه كان يبحث عن جملته هذه منذ أول يوم وصل فيه إلى هنا.

- وإلى أين سترحل؟!!!...

- لا أعلم، مجرد فكرة قابلة للتنفيذ قد طرأت على بالي، فما الذي لنا في هذه القرية؛ الشيخ مرزوق أصبح تحت الثرى، وياسمينة لم تعد لي...

تغيّرت سحنته حين ذكر اسم ياسمينة؛ توقع أن يصرخ، ويقول الحقيقة، ولكنه لم يقلها، دسّ رأسه بين ركبتَيْه وصمت... ثم أردف قائلاً:

- فاضل، هناك قرى كثيرة لديها قابلية بأن نعيش على ترابها بعيداً عن كل ما جرى.

ودون أن يرفع رأسه قال:

- أتترك قريتك، وذكرياتك، وأرضك...

- لا أعلم، ولكني على ضوء ما قاله لي صمعان، شعرت أنه لم يكن صادقاً...

قام صادق واقفاً، وأبحر بعينيه نحو الفضاء الواسع وقال:

- ذكرياتي سترحل معي، وكل قرية تقبل عقلي هي قريتي، أما الأرض يا فاضل، فأنا مقتنع تمام الاقتناع أن هذه الأرض ليست أرضي!!!...

لم ينطق فاضل بأي كلمة، وبعد فترة من الصمت، قال:

– رأيك سديد، اترك هذه القرية، فأنا أخاف عليك أن يفعلوا بك ما فعلوه بالشيخ مرزوق، رحمه الله...

قال ذلك دون أن يرفع وجهه نحو صادق، قالها بهدوء، وكأنَّ من سيرحل عن القرية، شخص آخر، لا صديقه القريب منه. في تلك اللحظة ودّ صادق لو يصفعه، ولكنه تمالك نفسه ورضي بالصمت يلفهما، في تلك اللحظات شعر صادق أن فاضلاً ليس صديقه...

وتمنى بصدق أن يترك القرية، قبل أن يعرف فاضل أنه عرف سرّه...

26

قال الشيخ ثابت لصادق:

– أعرفك تماماً يا بني؛ فأنت مثل الشيخ مرزوق، فقد كان قول الحق على لسانه...

– صدقني يا شيخ ثابت؛ إن أبي لم يورِّث لي مالاً ولكنه ورَّث لي عقلاً لا يقبل أن يدفنه الآخرون بحجة الضياع أو الموت...

– فكِّر جيداً يا بني... فزمان أبيك ليس كزمانك هذا...

– ليست للحقيقة مكان ولا زمان يا شيخ...

– أعلم ذلك يا بني، ولكن نخاف أن نفقدك، فقريتنا يا بني الآن لها ألسن ومخالب.

– آه يا شيخ ثابت، يكاد يضيق صدري وأشعر أني كالبهيمة حين أرغم على الصمت، وأرضى بأن أسدّ فمي بقطعة خبز يابسة تجرح حلقي، وفي داخلي يا شيخ حديقة غناء فيها راحتي ولا أستطيع أن أطأها...

– وبرحيلك هذا يا بني لن تطأها...

– ولكني سأدخل حدائق أخرى بعيدة عن أنياب قريتي ومخالبها،

لقد قررت الرحيل يا شيخ؛ فدعني أرحل من هذه القرية فقد سئمت العيش بها...

نظر إليه الشيخ بحنان، وقال:

- لا تتحدث لأحد عن نيتك الرحيل؛ فلو عرفوا ذلك، يا بني، فلن يتركوك سالماً...

- أعلم ذلك...

سأرحل وكل ما أرجوه منك أن ترحل معي...

- أنا لن أرحل يا بني، فما بقي من العمر مثل ما مضى، لا تشغل بالك عليَّ، ففي يوم من الأيام سأرحل، وحينئذٍ لن أعود مرة أخرى...

ارتمى على صدره، تحوطني ذراعاه، حينئذٍ شمّ رائحة الشيخ مرزوق!!!...

رفع الشيخ ثابت رأس صادق وسأله:

- هل سيرحل معك فاضل...

لأول مرة احتضنه وبكى، فمسح دمعه وقال:

- الآن عرفت أنك قد عرفت كل شيء...

27

" لم يأتِ أحد إلى هذه القرية الصغيرة"، هكذا قال العم ثابت...

أشار بيديه إلى جسد صادق دون أن يرفع نظراته إلى وجهه وأكمل:

"أنت الوحيد الذي تميزت خطواته بجديد وطئها. أجساد كثيرة يا بني كان لها وجود في هذه القرية، بعضها غيّبها الموت، وبعضها الآخر غادر القرية يبحث عن لقمة تسدّ رمق جوع أبنائه، ها هي ذي القرية باقية كما كانت، حتى لو مضت السنون فستظل هذه القرية منسية، فلا خير في أهلها الذين هجروها، ولا خير هنا باقٍ؛ سوى خيرها السابق الذي (بالكاد) يسدّ أفواه أهلها. لا تحزن يا بني، فمن رحل أسقط من ذاكرته هذه القرية وشوارعها وناسها واسمها... وبرّأ ذمة ذاكرته من كل ما سبق. وها أنت ذا تعود فتبحث عن جديدها!! لا جديد يا بني، لا جديد يا بني، "...

لف جسده وبدأ يجمع الخوص ويدخلها داخل دكانه وكأنه يستعد لإغلاقه، جلس صادق على عتبة داره ليصله صوته من داخل الدكان قائلاً:

"لم يبقَ في هذه القرية سوى القرية، ربك كريم يا بني ولن ينسى عباده".

إحدى الخوص سقطت من يده، انحنى ليلتقطها، ثم أكمل:

"هؤلاء الناس الذين تراهم أخذوا على عاتقهم الصبر، واندسوا في شوارع القرية الضيقة. تشرق الشمس على عيونهم التي لا تنام، ويغطي الليل دعاءهم ودموعهم التي يخفونها خلف جدرانهم. لم تكن القرية هكذا يا بني، كانت عبارة عن أسرة واحدة تعيش على هواء واحد ورائحة واحدة وصباح واحد وليل واحد، وإذا دمعت عين في دار مسحتها يد في دار أخرى".

- ومَنْ بدَّل الحال يا عم؟!!!...

- الطمع يا بني...

- كيف ذلك؟!

هذه حكاية طويلة يا بني، وأذان الظهر على وشك أن يرتفع. د ع هذه الحكاية أسردها

لك هذا المساء...

ساعده في إغلاق باب دكانه الخشبي، وهو يتمتم كأنه يحادث نفسه:

- لقد تعوّدنا على كل شيء، وما هو غريب في هذه القرية؛ أن ترى رجلاً يمشي مرفوع الرأس.

طمع امتزج بشخصيات قادمة لم يُقرأ عنها في صفحات الزمن!!!...

إنهم لصوص!!!...

أجادوا سماع رنين النقود ونسوا صراخ الضعفاء...

ملأ الخوف قلوبهم، فلم يعدِ الأخ يعرف أن له اسماً يشبه اسم أخيه المظلوم!!!...

هربوا من خوفهم إلى طرقات المدينة ليناموا على أرصفتها، خلف الأسوار الطويلة التي لا تسمح لأنفاسهم أن تخترقها، لم ينسوا القرية، فكل إثم في هذه المدينة قد التصق على أسوارها الطويلة، فولُّوا وجوههم عن وجوه من يشحذون منهم فتات عيشهم!!!...

28

بعد مقتل الشيخ مرزوق، لم يعد صادق ينتظر أن يأتي ما هو جديد، تغيّرت كثيراً أحوال القرية، وكل ما هو غريب لم يعد، كُمّت الأفواه بالصمت، لم تقُم الأعراس ولا الأفراح، لم يتزوّج أحد في القرية. وكأن القرية قد لُعن الفرح فيها. فكل شباب القرية الذين تعلّموا المشي في طرقاتها الرملية، فرحوا بخطواتهم وانساقوا معها، ولم ينتبهوا إلى غبار سيارة الرجل ذي الهيئة المختلفة، الذي غشاهم بغبار سيارته، وهم يتبعون آثار عجلاتها.

لم تعد القرية تحمل معالمها القديمة، برغم ثبوتها، ولم تعد تصل المدينة الكبيرة حكايات القرية البريئة، ولم يعد أحد ينطق باسمها، وكأن اسمها ضاع في ذاكرة شيوخها الذين ماتوا، ولم يعد أهل القرية يختلفون عن أهل المدينة الكبيرة، فقد نسي الجار لون طلاء باب جاره. لم تعد ذاكرة القرية بذاك النشاط الذي توارثه أبناؤها، فأبناؤها ذهبوا إلى المدينة، الكل ركض خلف لقمته، أو راحته، ترك خلفه أمه وأباه، ولم يعد يسأل عنهما، فذاكرته ماتزال تحمل سنين الماضي في القرية، قبل أن يذهبوا ويختلطوا بأهل المدينة؛ الذين لا

يفرقون بين وجه وآخر. تفرّقوا هناك، فلم يعد يرى بعضهم بعضاً. فالأعمال التي امتهنوها، لا ترفع رؤوسهم عالياً، هناك من عمل في تنظيف الطرقات، وهناك من زاحم العمالة الأجنبية بأعمال بسيطة جداً، وسكنوا الدور في أحياء شعبية، خلف وجه المدينة البراق. وربما هذا دأب الكل حين يترك أرضه، ليبحث عن مصدر رزقه، ولا أحد منهم كان يرضى أن يكون هكذا، لذا تفرقوا، وتباعدوا، لئلا يرى بعضهم بعضاً.

29

لم يطق صادق الحياة، شعر أنه يكاد يختنق في هذه القرية، فخرج من داره وليس له هدف معين.

كل شيء في القرية لم يعد كما كان، كان الشبك الحديدي يكاد يحصر البقية الباقية من القرية في زاوية. وفي الطريق صادف الإمام صالح الوفاق...

نظر إليه صالح الوفاق بنظرة ساخرة، وقال له:

– ألم ترحل عن القرية بعد...

– لن أرحل عنها، وأنت ومَن معك مَن سيرحل...

ضحك صالح الوفاق بصوت عالٍ، وقال:

– القرية لي، وسأطردك منها مثل الكلب...

لم يتمالك صادق غضبه، فلطمه على وجهه، وفجأة تقدّم رجال من خلف صالح الوفاق، وضربوا صادقاً ضرباً مبرحاً، سقط على أثره أرضاً تنزف دماؤه، ولمح وهو لا يستطيع أن يرفع جسده عن الأرض، صديق طفولته فاضلاً، ينظر إليه من بعيد، دون أن يحرّك ساكناً...

30

مشى فاضل مسرعاً، إلى بيت صالح الوفاق إمام القرية، وحين وصل طَرَق الباب، وما هي إلا هنيهة، حتى فتح الباب صالح الوفاق إمام القرية، وقبل أن يتكلم فاضل سأله صالح الوفاق إمام القرية:

– هل غادر صادق القرية...

بكل سرور وبهجة أجاب فاضل:

– نعم، لقد سمعت أنه سيرحل، نعم يا شيخ صالح، فبعدما ضربه رجالك، قرر أن يترك القرية...

تنفس الصعداء، وبلمحة ذكية سأل فاضلاً:

– أتعلم إلى أين سيذهب؟

– لا أعرف، ولكنه قد قال لي منذ مدة، إن أرض الله واسعة...

وقبل أن يمتد الوقت بين حماسة فاضل وابتسامة صالح الوفاق إمام القرية قال فاضل:

– إن رحل يا شيخ، فسأكون من رجالك...

نظر إليه صالح الوفاق إمام القرية بغضب وقال:

– دعنا نتأكد أولاً من أنه سيرحل ولن يعود...

كست الخيبة ملامح فاضل وقال:

– كما تريد يا شيخ...

31

طاف صادق بكل أرجاء القرية بصمت قبل وداعه لقريته، وحين مرَّ بدار الشيخ مرزوق سمع صوتاً خافتاً يناديه، توجَّه بكلِّه إلى بيت الشيخ مرزوق، فوجد الباب مواربا، اقترب من الباب واستمع إلى صوت ياسمينة، لم يتمالك نفسه من الفرح، قالت له: – خذ هذه الأوراق... احتفظ بها جيداً... إنها مذكّرات أبي...

أغلق الباب، انتظر صادق قليلاً بعدما أخذ الأوراق، ولكن لم يجدّ جديد على إغلاق الباب.

ترك دار الشيخ مرزوق وفي داخله بكاء شديد، و ذهب إلى المقبرة، وبكى على قبر أمه كثيراً، وأكمل بكاءه على قبر الشيخ مرزوق. ودَّع كل بيوت القرية بعينيه ورحل...

ومضى الآن شهران على رحيل صادق، وذات صباح قابل صالح الوفاق إمام القرية فاضلاً؛ فسأله:

– هل وصلك شيء من صادق؟

– لا، يا شيخ...

– أتراه قد نسي القرية؟

– لا أعلم، ولكن أظنه لن يعود...

حينئذ تذكّر حقاً، أن صادقاً لم يرسل له شيئاً، ولا يعرف أين هو. فقد كان لدى فاضل خوف، من أن يكون صادق علم بالاتفاق الذي تمّ بينه وبين صالح الوفاق إمام القرية، ولكن تذكر أن لا أحد يعرف هذا الاتفاق، ومن المستحيل أن يكون صالح الوفاق، إمام القرية، قد أرسل له خبراً بذلك.

32

في ليلة بعيدة، خرج الشيخ سعيد النخال في ليلة ظلماء، في ذلك الوقت، طلا كل طرقات القرية بالصمت، و لم يسأله أحدٌ عما يريد، على رغم أن الكل كان يعرفه جيداً، كان الكل خائفاً من الاقتراب منه، كان ذا هيئة مختلفة عما كانت له في السابق، تبعث في النفوس الخوف منه، وهو لم يكلِّم أحداً، مشَّط أزقة القرية، وخاصة الضيقة منها، رمى نظراته يمنة ويسرة، وكأنه يسترجع أحداثاً ماضية، تجوّل في القرية كلها، كان وحيداً، أوقف سيارته الفاخرة بجانب مسجد القرية، وأخذ يجول في طرقاتها على قدميه، ثم اختفى!...

وفي الفجر، خرج أهالي القرية لتأدية الصلاة، فوجدوا أن أفواههم قد كُبِّلت بالصمت!

فالذي يحب ابنه ويرجو الخير له، جعل لسانه داخل فيه، و لم ينطق بحرف واحد، ترك كل شيء يمر أمامه وهو صامت.

وكان الصمت يروي تاريخ هذا الشيخ، وكأن هذا الصمت يتحدث بصوت؛ لا طعم له ولا لون. فسطَّر على خيوط الظلام ما كان همس به من قبل:

الشيخ سعيد النخال؛ خرج يوماً من الأيام من هذه القرية، وهو لا يملك سوى الرداء البالي الذي يلبسه، كان حافي القدمين، ولم يسمع به أحد في القرية، كان فقيراً، لا يملك قوت بطنه. كان يسابق نور الفجر بحثاً عن عمل، وعمل في كل شيء: حَمَل البضائع، نظّف المتاجر، أجاب طلبات الزبائن في متاجر عدة، حرث الأرض وأعدّ القهوة لمناسبات كثيرة. كان ينام حين يكسوه ظلام الليل في كل مكان عمل فيه نهاره ذاك، وآخر أعماله؛ أن عمل عند تاجر في بيع التمر، وفي آخر أيام ذلك التاجر؛ أوصاه أن يبيع كامل المحصول لتجار عابرين يبتاعونه بأغلى الأثمان، وقبل أن يبيع كامل المحصول مات سيده التاجر، فجمع ثمن التمر وأعطاه إلى ورثة سيده، لكن بالسعر القديم وكان الورثة لا يعلمون عن صنعة أبيهم شيئاً، فاستغلّ جهلهم وأخذ فرق السعر لنفسه وتركهم. لم يكن يخاف الله، فجُلّ تفكيره كيف يستطيع أن يلبس ثوب أبيهم!!

وهو يعلم كرههم له، فقد كان على يقين بأنهم لن يتركوه عندهم بعد وفاة أبيهم، وهم طاردوه لا محالة...

ترك القرية ورحل إلى قرى بعيدة مارس فيها ظلمه ونصبه، ونثر عليها كل أكاذيبه... ثم عاد إلى القرية يلبس ثوب سيده الميت.

عاد الشيخ سعيد إلى القرية وصلّى مع أهلها صلاة العشاء واختفى بعدها، وقبيل أذان الفجر، كانت سيارته تثير الغبار من خلف المسجد، لا أحد يعلم لماذا عاد ورحل؟...

حينئذٍ قلّ عدد المصلين في صلاة الفجر، كل من كان وقتئذٍ في المسجد هم من كبار السن، أما الشباب فلا أحد منهم حضر الصلاة.

خرج المصلون من الصلاة، فوجدوا الغبار يعلو في الأجواء، فعرفوا أنه تركهم.

لزموا الصمت حيال تلك الواقعة، وعندما أشرقت الشمس، كان الذي حدث قبيل أذان الفجر كأنه لم يكن.

وبعد صلاة ظهر اليوم التالي، وجدوا شباكاً حديدياً يحيط بالقرية، وفي وسط الشباك الحديدي، علّقت لوحة كُتب عليها "أملاك سعيد النخال وصالح الوفاق"!...

33

بعد خمس سنوات من رحيل صادق عن القرية، شده الحنين لزيارتها، عزم أمره وذهب إلى القرية، كان وصوله إليها بعد صلاة المغرب، لم يجد في القرية الوجوه الطيبة التي كان يعرفها، شعر أنه غريب عن هذه الأرض، وتملكه شعور بأن هذه القرية ليست قريته.

اتجه إلى متجر الشيخ ثابت، فوجده للتوّ عائداً من صلاة الفجر، رمى جسده عليه واحتضنه بقوة وقال:

– لو لم أجدك، لظننت أنني أخطأت في الوصول لقريتي.

– اجلس يا بني، فالأحوال ليست كما كانت...

جلس صادق حيث أشار إليه الشيخ ثابت وسأله:

– كيف حال القرية؟...

– بسطاء القوم يشربون الخمر...

– أتقول ذلك جادّاً...

– بعد موت الشيخ مرزوق ورحيلك؛ أصبح كل شيء متاحاً..

– وكيف رضيتم بذلك...

– سجن القرية قد امتلأ بمن لا يرضون...

– لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم...

– هناك أشياء كثيرة تُدمي القلوب في قريتنا...

– أستغفر الله العظيم...

– وجوه الغرباء في كل مكان في القرية، تجدهم مشطوا كل شيء، تراهم يهيمون مع أذان الفجر بروائحهم النتنة؛ صمت للحظات، وكأنه يتذكر شيئاً ما، ثم أكمل:

– كنت متجهاً إلى المسجد لأداء صلاة الفجر، اصطدم بي أحدهم، نظرت إليه بازدراء، وهممت أن أنصحه وأهديَه، فبصق المخمور على لحيتي البيضاء؛ قالها بألم شعر به صادق في ملامح وجهه – وأكمل الشيخ ثابت – ولم يكتف بذلك بل أيقظ النائمين بصراخه، يضرب نفسه بيديه، حتى تسيل دماؤه، وهو لا يفتر عن صراخه، اجتمع المصلون عليه وسقناه إلى مركز الشرطة، ودون أن نتكلم وضعه الشرطي في السجن، وحين غادرت ومن معي مركز الشرطة، ذهبنا إلى المسجد وأدينا الصلاة، وحين خرجنا من المسجد وجدنا المخمور عينه نائماً بمحاذاة جدار المسجد.

لم يستطع صادق أن يسمع المزيد، قام ومشى خطوات مبتعداً عن الشيخ ثابت، وكأنه يعيش في عالم آخر، ينظر إلى الأرض، وصورة الشيخ مرزوق تتراءى له جلية.

صادف طفلاً صغيراً يلعب في الرمل، فلفت انتباهه، اقترب من الطفل ومسح على رأسه وسأله عن اسمه، فأجابه الطفل بأن اسمه صادق. فنظر إليه باستغراب وسأله عن اسم أبيه، فقال

الطفل: فاضل، فأصابته الدهشة، وكي يتأكد، سأله عن اسم أمه فقال الطفل

ياسمينة... سحب يده عن رأس الطفل وواصل سيره ساهماً، و لم يعرف حتى الآن، لِمَ سُمِّي الطفل باسمه!!...

مذكرات الشيخ مرزوق

أخفى صادق عجبه، وعاد يقرأ في الأوراق التي ألقت إليه بها ياسمينة ذات يوم:

1

في هذه القرية تعلّم الكل الصمت بإتقان،

لا يعلق أحد على أي شيء، تداركوا صمتهم وقفوا إلى دورهم ورؤوسهم تتدلى على صدورهم، أخفوا دمعاتهم التي انبثقت رائحتها من كل العيون وكأن شيئاً لم يكن في هذه القرية، اكتفوا برسم الابتسامة على سحنتها وتركوني وحيداً أشتم رائحة القرية الكريهة، ابتسمت لابتسامتهم بعدما أغدقت عليهم بكل أقوالي...

لم أكن في بداية لقائهم أرتجي من نظراتهم الخوف، كنت قد تركت لهم سجيتي التي لم تتأثر بطقوس القرية الغريبة، تنفست من

هوائهم وأكلت صمتهم وأطبقت عليَّ الحيرة. في هذا المساء نطق صمتهم حينما تيقنوا من سفر صالح الوفاق إمام القرية وشيخها إلى خارج القرية. التفتوا يميناً وشمالاً ومن ثم قالوا وقالوا، قالوا كل شيء ولم يجب أحدهم على حيرة أسئلتي!!!

من حولنا ظلام القرية بدأ يطبق على أجفان طرقات القرية يشي برحيل أجده آتياً، لم يسكت حديثهم الذي انجرف كسيل منحدر من علوٍّ، كأنهم أرادوا أن يعوضوا صمت نهارات سابقة بزج الحكايات التي لم أكن أسأل عنها، فكلام الليل ستمحوه أشعة الشمس الآتية - هكذا قال لي أحدهم حينما هممنا وكأنه يأخذ مني وعداً بأن لا أتفوه بشيء مما قالوا لأي أحد وهو يهمّ بالانصراف - وسط الصمت الذي أعقب حديثهم علا صوت المؤذن لصلاة العشاء، ذكروا الله كثيراً لأول مرة وتراكضوا خائفين من أمامي إلى المسجد، اتجهت إلى داري القريبة، توضأت وخرجت بسرعة نحو المسجد مهللاً، وجدتهم قابعين في الصف الأول بيد كل منهم مصحف يدسّ وجهه فيه، انتبهوا لدخولي على صوت تهليلي، شملوني بنظرات خاطفة وأكملوا ما هم عليه وكأنهم لا يعرفوني، كبّرت لخالقي وصليت تحية المسجد، وقبل أن يقيم الإمام محسن البديل للصالح الوفاق إمام القرية المسافر، عدَّ المصلين الذي خلفه وامتعض لرؤيتي في الصف الأول.

2

قررت الرحيل!!!...

فإذا لم أرحل سيقتلونني، حاولت أن أحابيهم، وأن أسرد لهم حقيقة شيخ القرية، وأعلم يقيناً أنهم يعلمون ما سأقوله، ولكنهم خائفون، لقد سمعتهم ذات مساء يتداولون سيرته في الخفاء، أهل القرية يعرفون كل شيء، ولكنهم خائفون على نسائهم وأولادهم، حتى لو قلت لهم كل ما أعرفه عن هذا الشيخ، فخوفهم منه ومن إمام المسجد يجرهم إلى تحريف ما سيسمعونه مني، وسيخرج هذا الشيخ، ويقول لهم كلاماً كثيراً، وسيقتنعون بما سيقوله على الرغم مني، لأنه الأقوى، هم يدركون أنه كاذب ولص، وحقير، ولكنهم جميعاً، ولدوا على هذه الأرض التي سرقها منهم، وجعلهم أجراء عنده، فلا بد لي من الرحيل، حتى لا أمرض أو أموت من القهر على وضعهم، وأنا أرى أهالي القرية يقتلون كل دقيقة، سأهرب إلى أية قرية، هناك قرى كثيرة، لا يعيش الخوف، في جنبات قلوب أهلها، قدّر لي أن لا أستكين في قرية واحدة وأدفن تحت ترابها، سأهرب وسأكشف حقيقته أمام الكل، سأزيح ثوب البر والتقوى عن جسده، سأعرّيه، ولن أخاف أبداً، فليس هناك ما أخاف عليه، وأنا طاعن في السن، ليس بين الموت وبيني سوى خطوات ليس لي أن أدرك عددها، كل ما أخاف منه، أن تكون له يد في تلك القرية التي سأرحل إليها، أخاف أن هذا الظالم وزمرته يقتلون ما رحلت لأجله، وأخاف أن يكون أهالي تلك القرية، يعيشون وضع أهالي هذه القرية نفسه، أعلم أن له يداً تبطش في كل مكان، حينئذٍ سيضيع مجهودي، وأجدني قد إلتُ إلى ما آل إليه أهل هذه القرية، وتموت الحقيقة بموتي.

3

هنا لا تختلط الأمور لديّ كثيراً، فكل أمر قد أعدته منذ زمن، يعيش في ذاكرة لا تقبل البوح. أنتكس على نفسي، أسرح بأفكاري، أرسمها أمامي في فضاءات مذهلة وأعيشها، وحين ترف عيني للواقع، أسقط خلف قطعة رغيف الخبز، التي أشم رائحتها، وأتناولها يابسة. هنا في هذا المكان، وخلف أماكن أخرى تتكاثر فيها الأجساد، وشقوق الجدران، يطوي الليل لحافه لقبس أشعة نور الفجر، التي تأتي راكضة وتعتلي الرؤوس، يتوهم بها سكان هذا المكان الفقير، أن يغسلوا وجوههم من بياض أشعة الشمس، وهم يعيشون الوهم الذي أصبح غذاء كل العقول الشابة والهرمة، وهم لا يغسلونها؛ فلا أستطيع أن أفعل لأهالي القرية شيئاً، لا أملك سوى النصيحة والتحذير، وقد قلتهما، وأعلم يقيناً، أن أقوالي تجرحهم، ولكنهم لا يستطيعون سوى الصمت، والرضا بما هو حاصل لهم، لقد أصبحوا أجراء في أراضٍ كانت لهم أملاكاً، يزرعون الأرض، ويجني ابن النخال ثمارها، أحدهم اقترب هذا المساء نحو دكاني، يعتليه الخوف، التفت يميناً وشمالاً وقال لي:

– لقد صدقت فيما قلته يا شيخ، أصبحنا عبيداً عنده، أغرانا بالأكل، واستغل حاجتنا، فنحن يا شيخ ميتون، ولكن في صدورنا، شيء من الهواء، وأشياء كثيرة من الذل!

4

في هذه القرية الكل يغني وحيداً...

ولا تختلف أصواتهم، فهي ما تزال تحمل النبرات نفسها...

في المساء الكل في قريتي يغلق بابه جيداً، ولا ينتظر أن يسمع طرقاً على الباب...

وفي الصباح يعشق أهالي قريتي أن يضم كل واحد منهم على حدة أشعة الشمس. يخرجون من دورهم، يغلقون أبوابهم جيداً، وينظر بعضهم إلى بعض في الطرقات نظرات غريبة، وكأن الكل قادم من أحلام نوم البارحة، كانوا فيما سبق كالجسد الواحد، وكانت كل الدور واحدة، وطعامهم فيما سبق كان يقبل القسمة على العدد الكبير، والآن مع زوال شمس كل نهار، تغلق الأبواب جيداً حتى لا يخرج إلى الطريق صوت الغناء الحزين.

فيما سبق كانت الحياة هنا بسيطة، لم يتكلف أحد في مقولته، وكثير منهم لا يعيد كلمته مرتين لتُفهم.

الكل يدرك الآخر، يتقاسم معه الهمّ، ويشاركه في الفرح والحزن، هكذا بدأت الحياة في قريتي منذ أزمنة بعيدة، ولم تنته على ما بدأت به.

فمن سرق طباع أهل القرية؟!...

من لوّث طرقاتها؟!...

من جعل الحديث لا يتواصل سوى مع المتحدث فقط؟!...

من أنسى الجار اسم جاره، ولون بابه؟...

وأين هم أهل القرية؟...

لم تعد تجمعهم الحكاية الواحدة، والقصيدة الواحدة، كما كان دأب أهل القرية، لم تعد أصواتهم تحمل سمة نطقها، لا أعلم لماذا لقي الحزن تربة خصبة ليتوغل في النفوس، أصبحوا غرباء في دواخلهم، ولم يعد للغريب نظرات مختلفة، فالكل في هذه القرية أصبح غريباً، أغلقت الأبواب في وجه الضيوف، ولم يأت من هو ضيف، حين سقطت ابتسامة الترحيب. أمور كثيرة سقطت، كانت كالصخر وانهارت في لحظة، ربما لم يتوقعها أحد، وربما توقعوها، ورفعوا أيديهم عالياً في الهواء، يدعو الكل لنفسه وأولاده فقط. وبعض الأحيان يعللون ذلك بقولهم لأنفسهم، هكذا هي الحياة.

قتلت براءة القرية، تلك القرية الوادعة، التي اتخذتها ذات يوم لأكون فيها، وتمنيت أن أُدفن فيها، ولكن لا شيء يظل كما هو، ولا القرية كانت مثلما كانت!

5

قبل خمس عشرة سنة، أتيت إلى هذه القرية...

لم أشأ أن يعرف أحد من أين أتيت، أو لماذا أتيت؟

فرجل أشيب أنا ذا، لم تفارق خطاي عتبة باب المسجد، كنت أصلي بالناس قبل أن يأتي الإمام صالح الوفاق، كان القدر عقيماً، واشتدت عليَّ وطأته، ماتت زوجتي قبل سنوات عدة، بعد قيامي بفريضة الحج، عشت وحيداً مع ابنتي ياسمينة، تأكل قدميَّ الأمتار

من أزقة القرية، أبحث عن انتهاء النهار، لأخلد بعد صلاة العشاء إلى النوم في داري.

أتيت إلى هذه القرية الصغيرة، من القرية الكبيرة والبعيدة عنها بمسافة ثماني ليالٍ. أتيت هنا، ولم أدعْ أحداً في هذه القرية يعرف عني شيئاً، فالسنون الأولى لوطء قدميَّ أرضِ هذه القرية عشتها في صمت، أرد السلام على من يسلّم عليّ، أو أُسلِّم على من كان لاهياً أو أدار وجهه عني، أناس هذه القرية طيبون، لا أعتقد البتة أن أحداً منهم قد ترك القرية إلا لأداء فريضة الحج أو العمرة، وكل من حج منهم ما زال يتحدث عن حجِّه، ولو لسنوات عدة، أميّون كلهم، عدا صالح الوفاق إمام القرية، وتاجر القرية الذي بالكاد يكتب اسمه، إنهم يفيقون فجراً، وينامون بعد صلاة العشاء، وعند صلاة الفجر يقف الإمام صالح قبل أن يكبر ينادي على أسماء القرية، ومن لا يجب على ندائه، فهو إمَّا مسافر أو به مرض، ولا يقيم الصلاة قبل أن يرى الصغير قبل الكبير.

ومن يتكاسل، وهو الأمر النادر الحدوث، يجلده صالح الوفاق. وكل ما أذكره منذ قدومي إلى هذه القرية قبل ست سنوات؛ أن حدث هذا التكاسل مرة واحدة من قبل شاب، لا يأتي للقرية كثيراً، له في هذه القرية عمةٌ طاعنة في السن، وفي يوم من الأيام جاء لزيارة عمته، ولم يصحُ لصلاة الفجر، وحين علم صالح الوفاق إمام القرية به، سحبه من ثوبه وأقام عليه حد الجلد. جلده خمس عشرة جلدة في باحة السوق أمام الملأ. ولم يأتِ ذلك الشاب بعدئذٍ إلى القرية أبداً، ولم يحضر جنازة عمته!...

6

بعدما قرأ صادق مذكرات الشيخ مرزوق بتمعن شديد ، كتب على ظهر المذكرات :

كانت القرية تعيش في هدوء وسلام، ينتظر أهلها نزول الغيث كل سنة، يزرعون أرضهم، ويقتاتون منها، بعيداً عن صخب المدينة، رحلوا في مسيرة الجوع والجفاف التي عمّت القرية سنوات. بعض أهلها سكنوا العاصمة الكبيرة، تواضعوا في أعمالهم هناك، أو أن الجهل الذي حملوه معهم من القرية، وضعهم في أعمال صغيرة لا تتناسب مع سمو أصلهم، ونسوا القرية وأهلها، تجاهلوها في بحثهم عن الرزق.

ثم اعتلوا بجهدهم المناصب الكبيرة مع مرور السنين، وبدأ بعضهم يعود إلى القرية كبيراً بعدما كان صغيراً، ليُسكت أفواه أهلها ببناء مسجد، أو إنشاء صالة أفراح خيرية، أو إقامة حديقة في القرية تحمل أسماءهم، وأهل القرية محدودو التفكير، يتفاخرون أمام القرى بهم، وحين يأتي ذكر أحدهم ممن اعتلوا المناصب، يقولون بكل فخر إنه من قريتنا، أمه فلانة بنت فلان، وأبوه فلان بن فلان، على رغم أن هذا لم يأت إلى القرية ولو لحضور جنازة، بل يكتفي بأن يرسل لهم خطاب تعزية، فكل من كان له أصل في هذه القرية قد تنكّر لها، وأهل القرية مازالوا يمارسون التفاخر بهم، على رغم أنهم اعتلوا المناصب واعتلوا رؤوسهم، وقد علمتهم المناصب، أن لا ينظروا لما هو تحت أقدامهم!

وحين يصادفهم أحد من تلك الوجوه التي نسيت سمرة القرية، يبتسم في وجوههم، ويجلس معهم، وحين يطلبون منه أمراً لا يرد أمرهم بلسانه، وحين يكون جالساً على مقعده الوثير خلف مكتبه، ويأتي مدير مكتبه ليخبره أن فلاناً بن فلان من أهالي القرية يريد أن يقابله، يحاول أن يختلق الأعذار باجتماع أو بانشغال، أو أنه غير موجود، وقبل أن يخرج مدير مكتبه، يسمعه يتمتم بقوله "الله يلعنها من قرية، لم أجد فيها سوى الفقر!".

وجوه أهل القرية لم تعد كما كانت، لقد تمكّن من ملامحها الحزن. المكان مصابٌ بالقحط والجوع وانقطاع المطر. ترك بعض سكانه كل شيء خلفهم، واتجهوا صوب المدينة. آخرون مكثوا في القرية المنكوبة، صابرين ومحتسبين لله. يخرجون كل صباح، ويجلسون في الطرقات، يسمعون حديثَ بعضهم بعضاً، والحسرة تبدو في أعينهم. فجأة، يظهر سعيد النخّال الرجل الخمسيني الذي يرفل بملابس الثراء ليستغل حاجة الناس ويشتري أراضيهم بأسعار رخيصة، مستملكاً القرية. وحده الشيخ مرزوق المعروف باستقامته ونزاهته، يقف في وجه المخطّطات التي تُدبّر بخبث، محاولاً إقناع السكان بعدم بيع أراضيهم.

إنها حكاية قرية فقدت براءتها. لم تعد تجمع أهلها الحكاية الواحدة، والقصيدة الواحدة. أصبحوا غرباء في دواخلهم. أغلقت الأبواب في وجه الضيوف، وسقطت ابتسامة الترحيب.

إبراهيم محمد النملة صحافي وقاص سعودي، من مواليد ١٩٦٩. صدر له عن دار الساقي في الرواية «عبث»، وفي القصص «سيرة عمر أجهضه الصمت» و«عائلة تحمل اسمي»، وفي الشع
نفسي».





DAR AL SAQI

دار الساقي